محمد صلى الله عليه وسلم

في القرآن الكريم، مكانته، صفاته،

وأخلاقه

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن،

اليمن، إب

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com

استهلال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨ ﴾

[الأحزاب: ٤٥ - ٤٨]

الإهداء

إلى الشاهد على الأولين والآخرين، البشير النذير،

والسراج المنير،

الداعي إلى صراط الله المستقيم،

إلى نبي الرحمة،

ورسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله وسلّم

إلى السائرين على دربه

المتصفين بصفاته،

والمتخلقين بأخلاقه.

أهدي هذا الكتاب،

رجاء أن أنال، ووالدي ومن أحب،

شفاعته،

وأن نرد حوضه،

وندخل مدخله.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا أما بعد:

فإن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق عند الله تعالى، وهو الوحيد من بين الخلق الذين أمرنا الله تعالى أن نتأسى ونقتدي به، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١]. ولكي تحصل الأسوة والقدوة به صلى الله عليه وسلم لابد للمسلم أن يتعرف على مكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه من خلال القرآن الكريم، وكذلك يلزم المسلم أن يتعرَّف على صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي يلزمه الاتصاف بها كما اتصف بها محمد صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه التي تخلق بها صلى الله عليه وسلم، والتي ذكر الله تعالى بعضها في كتابه الكريم. والقرآن الكريم خير من بيَّن مكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالى، وذكر صفاته ،وأخلاقه صلى الله عليه وسلم؛ حتى تحصل به الأسوة والقدوة في حياة المسلمين.

وقد غالى بعض المسلمين في محبتهم النبي صلى الله عليه وسلم فرفعوه فوق مكانته، وأعطوه من المكانة والصفات ما ليس له، وجفاه البعض حتى أنزلوه عن مكانته الحقة، وجردوه من صفاته المستحقة، فجاء هذا الكتاب كدراسة تأصيلة للتعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم ولبيان مكانة، وذكر صفاته من خلال القرآن الكريم؛ فهو خير شاهد على ذلك بلى غلو ولا جفا.

وهذا الكتاب يهدف إلى التعريف بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال القرآن الكريم؛ وببيان مكانته صلى الله عليه وسلم وذكر صفاته وبعض أخلاقه الواردة في القرآن الكريم، وذلك من خلال دراسة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الموضوع.

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن،

اليمن، إب

بريدي الإلكتروني

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com

موبايل/ واتس: ٧١٢٨٤٩٥٠٥

١٥ذي القعدة ١٤٤٣ الموافق ١٤/ ٦/ ٢٠٢٢

المبحث الأول: التعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم

إن التعرف بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم يقتضي التعرف على اسمه ونسبه ومولده، كما يقتضي التعرف على اسمائه التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والتعرف على أسمائه الواردة في السنة النبوية، ومعاني هذه الأسماء ودلالاتها، وهو ما سنتحدث عنه في هذا المبحث على النحو الآتي:

أولا: اسمه ونسبه صلى الله عليه وسلم

قال الإمام البخاري عن اسم النبي صلى الله عليه وسلم هو:" هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"(١)

قال الإمام ابن القيم:" إلى عدنان نسبه معلوم والصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة، وما فوق "عدنان" مختلف فيه، ولا خلاف

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة ، باب مبعث النبي صلى الله عليه و سلم ٣/ ١٣٩٨، وينظر: السيرة النبوية، لابن هشام ١/ ١.

بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم"[٢].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن اسمه ونسبه، فعن المطلب بن أبى وداعة قال قال العباس: بلغ النبي صلى الله عليه وسلم بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: **من أنا؟** قالوا أنت رسول الله فقال:" **أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا**" »[٣].

ونسبه صلى الله عليه وسلم يرجع إلى قبيلة قريش، أعرق القبائل العبية حسبا ونسبا، فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: **إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**"[٤].

---

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابنا لقيم ١/ ٧١.

(٣) مسند أحمد، برقم (١٧٨٨) قال شعيب الأرناؤوط عن هذا الحديث: حسن لغيره، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزياداته، برقم (١٤٧٢).

(٤) صحيح مسلم ، كتباب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (٢٢٧٦).

أما مولده صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل، يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر وفيه مات، هذا هو المشهور عند الجمهور والله أعلم"[٥].

ثانياً: صفته صلّى الله عليه وسلّم

قال إمام البيهقي في صفة النبي صلى الله عليه وسلم:" كان صلّى الله عليه وسلّم متوسط القامة ليس بالنحيف ولا الجسيم، عريض الصدر، ضخم اليدين والقدمين، مبسوط الكفين ليّنهما، قليل لحم العقبين، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتم النبوّة وهو شعر مجتمع كالزّرّ. وهو أحسن الناس وجها أبيض اللون بياضا مزهرا، مستدير الوجه مليحه، واسع الفم، طويل شقّ العينين، رجل الشعر، ولم يشب من شعره الأسود إلّا اليسير. وإضافة إلى حسن خلقته وسلامة حواسّه وأعضائه فقد اعتنى بمظهره من النظافة وحسن الهيئة والتطيب بالطيب[٦]

---

(٥) السيرة النبوية، لابن كثير (١/ ١٩٩).

(٦) دلائل النبوة، للبيهقي، باب جامع صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٧٥.

ثالثا: أسماؤه صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

محمد صلى الله عليه وسلم هذا الاسم هو أشهر أسماء النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم أربع مرات في المواطن الآتية: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [محمد: ٢] وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح:٢٩].

والملاحظ في هذه المواضع التي ذكر فيها اسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم، يجد أنها وردت في سياق الإخبار، ولم ترد في سياق النداء، والغالب أن نداء الله تعالى لرسوله في القرآن الكريم يأتي بوصف الرسالة أو النبوة إلا في سورتي المزمل والمدثر، فقد ناداه الله تعالي فيهما بصفة المزمل والمدثر بخلاف سائر الأنبياء والمرسلين، فإن الله تعالى ناداهم في القرآن الكريم صراحة بأسمائهم، وهذا ما يُنبِئُ بتعظيم الله تعالى لقدر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن عاشور: "الأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفا عند المتكلم

فلا يعدل من الاسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ [التحريم: ١]، و قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ [المائدة: ٦٧] فإذا نودي المنادى بوصف هيئته من لبسة أو جلسة أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته، ونداء النبيء بـ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾[المزمل: ١] نداء تلطف وارتفاق ومثله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١] "[٧]

ويلي هذا الاسم شهرةً اسمه صلى الله عليه وسلم أحمد، وقد جاء ذُكِرَ مرةً واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ ﴾ [الصف: ٦]، قال الإمام القرطبي معلقا على هذين الاسمين:" وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل، فمعنى " أحمد " أي أحمد الحامدين لربه، والانبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدا، ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم اسم أحمد على اسم

---

(٧) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٩/ ٢٥٥، باختصار.

محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ فبأحمد ذكره ربه قبل أن يذكره بمحمد؛ لان حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل"[٨].

رابعا: دلالة اسمه محمد صلى الله عليه وسلم

أما سبب تسمية النبي صلى الله عليه وسلم باسم محمد، فقد أَلْهم الله تعالى جده عبد المطلب أن يسميه بهذا الاسم، وكان قد رآى قبل ولادته النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا في ذلك، قال السهيلي: "سئل عبد المطلب: ما سميت ابنك؟ فقال: محمدا، فقيل له: كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟، فقال: إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم، وكان عبد المطلب وقد رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض وطرف في المشرق وطرف في المغرب ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض فلذلك سماه محمدا، وهذا الاسم منقول من الصفة فالمحمد في اللغة هو الذي

---

(٨) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ١٨/ ٨٣، باختصار..

يحمد حمدا بعد حمد ولا يكون مَفْعَل مثل: مَضْرَبْ وممدح إلا لمن تكرر فيه الفعل مرة بعد مرة "[٩] .

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم حظا وافراً من صفة الحمد، قال الامام النووي:"

يقال: رجل محمد ومحمود، اذا كثرت خصاله المحمودة، وبه سمي نبينا صلى الله عليه وسلم محمدا وأحمد أي: ألهم الله تعالى أهله أن يسموه به؛ لما علم من جميل صفاته"[١٠]،

وقال الإمام ابن القيم: " إذا ثبت هذا فتسميته صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم؛ لما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد؛ فإنه صلى الله عليه وسلم محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمود عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحوداً، أو عناداً، أو جهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده فإنه يُحمد من اتصف بصفات الكمال، وهو صلى الله عليه وسلم اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، إن اسمه محمد وأحمد، وأمته الحمادون،

---

(٩) الروض الأنف، للسهيلي، صـ ٧٤، باختصار.

(١٠) شرح صحيح مسلم، للنووي١٥/ ١٠٤.

يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد"[١١].

خامسا: موقف الكفار من اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم

لا حتواء اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم على كمالات الحمد المذكورة آنفا؛ فقد كان المشركون لا ينادونه بمحمد وينبزونه بمذمما، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وأنا محمد!** "[١٢]

ومن التطبيقات العملية، لتحريف المشركين لهذا الاسم ما روته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: لما نزلت:﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مذمما أبينا، و دينه قلينا، وأمره عصينا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إنها لن تراني**" وقرأ:﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، لابن قيم الجوزية (٤/ ٣٦).

(١٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه و سلم، برقم (٣٣٤٠).

بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٥] فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني فقال: لا و رب هذا البيت ما هجاك فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها"[١٣]، قال الحافظ ابن حجر:" كان الكفار من قريش من شدة كراهتهم للنبي صلى الله عليه وسلم لا يسمونه باسمه الدال على المدح فيعدلون إلى ضده فيقولون مذمم، وإذا ذكروه بسوء قالوا فعل الله بمذمم!، ومذمم ليس هو اسمه، ولا يعرف به؛ فكان الذي يقع منهم في ذلك مصروفا إلى غيره" [١٤].

سادسا: أسماءه للنبي في السنة النبوية

وقد سمّى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه بأسماء أخرى غير ما سماه به ربه في القرآن الكريم، فعن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لي خمسة أسماء: أنا محمد**

---

(١٣) المستدرك على الصحيحين، للحاكم كتاب التفسير، باب تفسير سورة بني إسرائيل، برقم(٣٣٧٦)، وقال الحاكم، هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح

(١٤) فتح الباري، لابن حجر ٦/ ٥٥٨.

وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب"[١٥]

وفي صحيح مسلم عن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي**"[١٦]، وفي بيان معاني هذه الأسماء قال الإمام النووي:" قوله صلى الله عليه وسلم:" **وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر**" قال العلماء: المراد محو الكفر من مكة والمدينة وسائر بلاد العرب ومازوى له صلى الله عليه وسلم من الارض ووعد أن يبلغه ملك أمته، قالوا: ويحتمل أن المراد المحو العام بمعنى الظهور بالحجة والغلبة كما قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩]، قوله صلى الله عليه و سلم " **وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي** " قال أهل العلم معناهما يحشرون علي أثري وزمان نبوتي ورسالتي وليس بعدي نبي، أما العاقب ففسره في الحديث بانه ليس بعده نبي، أي: جاء عقبهم قال بن الاعرابي: العاقب الذي

([١٥]) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم، برقم(٣٣٣٩).

([١٦]) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، برقم ٤٣٤٢

يخلف في الخير من كان قبله، ومنه عقب الرجل لولده، قال العلماء: وإنما اقتصر على هذه الاسماء مع أن له صلى الله عليه وسلم اسماء غيرها؛ لأنها موجودة في الكتب المتقدمة وموجودة للأمم السالفة" (١٧).

وقال الإمام ابن القيم: " فصل في أسمائه صلى الله عليه وسلم: وكلها نعوت ليست أعلاما محضة لمجرد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به؛ توجب له المدح والكمال، وأسماؤه صلى الله عليه وسلم نوعان: **أحدهما**: خاص لا يشاركه فيه غيره من الرسل كمحمد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفي، ونبي الملحمة، **والثاني**: ما يشاركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه كماله، فهو مختص بكماله دون أصله، كرسول الله، ونبيه، وعبده، والشاهد، والمبشر، والنذير، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم، تجاوزت أسماؤه المائتين، كالصادق، والمصدوق، والرؤوف الرحيم، إلى أمثال ذلك، وفي هذا قال من قال من الناس: إن لله ألف اسم، وللنبي صلى الله عليه وسلم ألف اسم، قاله أبو الخطاب بن دحية ومقصوده الأوصاف."(١٨)

---

(١٧) شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ٧٤.، باختصار وتصرف يسير.

(١٨) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية ١/ ٨٦، باختصار.

المبحث الثاني : مكانة النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

بَيَّنَ الله تعالى في كتابه الكريم مكانة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويتجلى بيان هذه المكانة من خلال ذكر اسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مقرونا مع اسمه تعالى في مواطن متعددة في كتابه الكريم، وهذه المواطن سوف نتناولها على النحو الآتي:

أولا: الإيمان بالله ورسوله

مما هو مقرر في عقيدة المسلمين أن الإيمان برسالة نبينا محمد صلى لله عليه وسلم ركن من أركان الإسلام والإيمان، فلا يُقْبل إيمان العبد واسلامه حتى يُقر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويشهد له بالنبوة والرسالة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان**"[١٩].

ولمكانة النبي صلى الله عليه وسلم فقد قرن الله تعالى في كتابه الكريم الإيمان به بالإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك أن من آمن بالله تعالى ولم يؤمن برسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن

([١٩]) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب" **بني الإسلام على خمس**" برقم(٨)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، برقم(٢٠).

إيمانه لا يقبل عند الله تعالى، وقد ورد في هذا الصدد آيات من كتاب الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والمتأمل في هذه الآية يجد فيها بيان أن الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مطلوب من جميع أمم أهل الأرض على اختلاف مللهم ونحلهم، وأن من كفر به وبرسالته صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا، قال العلامة ابن عاشور:" ولما كان في البشر من لا يؤمن بالله، وفيهم من يؤمن بالله، ولا يؤمن بالنبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جمع الله تعالى في هذه الآية بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي الأمي في طلب واحد؛ ليكون هذا الطلب متوجها للبشر كلهم؛ ليجمعوا في إيمانهم بين الإيمان بالله والإيمان بالنبي الأمي، مع قضاء حق التأدب مع الله بجعل الإيمان به مقدما على طلب الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم؛ للإشارة إلى أن الإيمان بالرسول إنما هو لأجل الإيمان بالله، على نحو ما أشار إليه قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾[النساء:

١٥٠ – ١٥١]، والإيمان بالله إيمان بأعظم صفاته وهي الإلهية المتضمن إياها اسم الذات، والإيمان بالرسول الإيمان بأخص صفاته وهو الرسالة؛ وذلك معلوم من إناطة الإيمان بوصف الرسول دون اسمه العلم، وفي قوله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾، ووصف النبي الأمي بـ ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾؛ للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وأنه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب؛ لأن هذا الرسول يؤمن بالله وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحقة، وكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرسل، وأوثر هنا التعبير بكلماته، دون كتبه؛ لأن المقصود الإيماء إلى إيمان الرسول عليه الصلاة والسلام بأن عيسى كلمة الله، أي أثر كلمته، وهي أمر التكوين، إذ كان تكون عيسى عن غير سبب التكون المعتاد بل كان تكونه بقول الله كن، فاقتضى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤمن بعيسى، أي بكونه رسولا من الله، وذلك قطع لمعذرة النصارى في التردد في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، واقتضى أن الرسول يؤمن بأن عيسى كلمة الله، وليس ابن الله، وفي ذلك بيان للإيمان الحق، ورد على اليهود فيما نسبوه إليه، ورد على النصارى فيما غلوا فيه"(٢٠).

---

(٢٠) التحرير والتنوير، لابن عاشور(٩/ ١٤٠) باختصار وتصرف.

وقال الشيخ الشعراوي في تعليقه على هذه الآية:" أمر الحق رسوله أن يقول: ﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ ، وحيثية الإيمان هي الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذي له ملك السموات والأرض، وهو لا إله إلا هو، وهو يحيي ويميت؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى: بقوله:﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لم يقل محمد وآمنوا بي؛ لأنها ليست مسألة ذاتية في شخصك يا محمد، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس، فالإيمان لا بذاتك وشخصك، ولكن لأنك رسول الله، فجاء بالحيثية الأصلية ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، والرسول قد يكون محمدا صلى الله عليه وسلم أو غيره"(٢١).

ومن الآيات القرآنية التي قرن الله تعالى بها الإيمان برسوله بالإيمان به قوله سبحانه وتعالى:﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾[التغابن: ٨]' قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" الإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة"(٢٢).

---

(٢١) تفسير الشعراوي ٧/ ٤٣٨٥، باختصار.

(٢٢) تفسير السعدي ، صـ ٨٦٦.

فلمكانة الإيمان بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قرن الله تعالى الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان به سبحانه وتعالى، فلا يكتمل إيمان المرء الله تعالى حتى يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: طاعة الله ورسوله

ولمكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالى، فقد قرن الله تعالى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعة سبحانه وتعالى؛ وذلك أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النساء : ٨٠]، والمؤمن الصادق في إيمانه إذا جاءه أمر الله وأمر رسوله سارع لتنفيذهما بدون تردد؛ لأنه يعلم أن طاعة الله وطاعة رسوله هي طريق للفلاح في الدنيا والفوز في الآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ﴾ [النور: ٥١ – ٥٢]، قال سيد قطب في ظلاله حول هذه الآية:" شعار المسلم في الحياة السمع والطاعة لله ورسوله بلا تردد ولا جدال ولا انحراف، والسمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم الحق وما عداه الهوى، فالله الذي خلق أعلم بمن خلق، ومن هذا حالهم﴾

هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾؛ لأن الله هو الذي يدبر أمورهم، وينظم علاقاتهم، ويحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ في الآية السابقة كان الحديث فيها عن الطاعة لله ورسوله والتسليم لهما في الأحكام، وفي هذه الآية حديث عن طاعة الله ورسوله في كل أمر أو نهي، وهذه الطاعة مصحوبة بخشية الله وتقواه، وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، والطاعة لله ورسوله، مع خشية الله وتقواه، أدب رفيع ، ينبئ عن مدى إشراق القلب بنور الله، واتصاله به، وشعوره بهيبته، وطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة، فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله، ولا تستمد منها، هي ذلة يأباها الكريم، وينفر منها طبع المؤمن، ويستعلي عليها ضميره، فالمؤمن الحق لا يحني رأسه إلا لله الواحد القهار"[٢٣].

والمؤمن الصاق في إيمانه بالله ورسوله ينبغي له أن تظهر عليه آثار إيمانه بالله ورسوله طاعةً عملية في سلوكه وجوارحه، وذلك بأن يتق الله تعالى بفعل المأمورات والابتعاد عن المنهيات، وأن يحرص على القول الصائب السديد؛ فينال بذلك من الله تعالى صلاح الأعمال ومغفرة

([٢٣]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٢٩١، بتصرف واختصار.

الذنوب، وطاعة الله تعالى ورسوله في ذلك هي الفوز العظيم، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾[الأحزاب: ٧٠ – ٧١]، قال الامام الرازي في تفسيره لهذه الآية:" فطاعة الله هي طاعة الرسول، ولكن جمع الله بينهما في هذه الآية لبيان شرف فعل المطيع، فإنه بطاعته هذه اتخذ عند الله عهداً وعند الرسول يداً وهذه الطاعة عدها الله فوزاً عظيما من وجهين **أحدهما**: أنها من أسباب النجاة من عذاب الله العظيم **والثاني**: أن هذه الطاعة أوصلته إلى ثواب عظيم في الجنة وهو الثواب الدائم الأبدي الذي لا ينتهي"[٢٤].

وقال سيد قطب في ظلاله حول هذه الآية:" طاعة الله ورسوله بذاتها فوز عظيم، فهي استقامة على نهج الله، والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة، والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح سعادة بذاته، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه، وليس الذي يسير في الطريق الممهود المنير وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون، كالذي يسير في الطريق المقلقل المظلم وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه، وطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها في ذاتها؛ وهو الفوز العظيم، قبل يوم الحساب وقبل الفوز بالنعيم، أما نعيم الآخرة فهو فضل زائد على

([٢٤]) مفاتيح الغيب، للرازي١٢/ ٣٨٧ بتصرف واختصار.

جزاء طاعة الله ورسوله، وهو فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل، والله يرزق من يشاء بغير حساب، ولعله فضل نظر الله فيه إلى ضعف هذا الإنسان، وإلى ضخامة التبعة التي يحملها على عاتقه، وإلى حمله للأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، والتي أخذها على عاتقه، وتعهد بحملها وحده، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات، وقصور العلم، وقصر العمر، وحواجز الزمان والمكان، دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد"[٢٥].

وطاعة الله ورسوله تظهر في مجالات متعددة، فتظهر حقيقة طاعة الله ورسوله في الموطن التي قد تشح فيها النفوس بحقوق الآخرين وتتردد في اعطاء كل ذي حق حقه من أهل الميراث، وقد أخبر الله تعالى أن من يطع الله ورسوله في مثل هذه المواطنن يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾[النساء: ١٣]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قُربهم من الميت واحتياجهم إليها، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها؛ ولهذا قال:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾أي: فيها، فلم يزد بعض الورثة ولم

([٢٥]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٦/ ١٠٢، باختصار وتصرف.

ينقص بعضًا بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ ﴾(٢٦).

كما تظهر طاعة المؤمن لله ورسوله في مواطن التي يظن فيها الهلاك والموت، ومنها مواطن الجهاد في سبيل الله تعالى، وكثير من الناس يترددون في الإقبال على هذه الطاعة؛ خوفاً من الهلاك والعطب، وقد رغَّب الله عباده المؤمنين في هذه الطاعة بأن وعد من أطاع الله ورسوله في هذا الموطن بأن يدخله الجنة، قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [الفتح: ١٧]، قال الإ مام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" أي: ومن يُطع الله ورسوله فيجيب إلى حرب أعداء الله من أهل الشرك، وإلى القتال مع المؤمنين ابتغاء وجه الله إذا دعي إلى ذلك، يُدخله الله يوم القيامة جنَّات تجري من تحتها الأنهار ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي: ومن يعص الله ورسوله، فيتخلَّف عن قتال أهل الشرك بالله إذا دعي إليه، ولم يستجب لدعاء الله ورسوله يعذّبه عذابا موجعا، وذلك عذاب جهنم يوم القيامة"(٢٧).

---

(٢٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢/ ٢٣٢، باختصار.

(٢٧) جامع البيان، للطبري ٢٢/ ٢٢٣.

فطاعة الله تعالى وطاعة رسوله قرن الله تعالى بينهما في كثير من المواطن؛ وذلك أنه لا يكتمل إيمان المؤمن حتي يطيع الله تعالى وسوله، قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١]، فإذا علم المؤمن ذلك سارع إلى طاعة الله ورسوله في كل موطن يدعوه الله ورسوله لطاعتهما في ذلك، وليعلم أن جزاء هذه الطاعة دخول الجنة، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: " **كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**، قالوا يا رسول الله ومن يأبى ؟! قال: **من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى** "[٢٨]

ثالثاً- محبة الله ورسوله

ولمكانة نبينا محمد صلى الله عليه عند ربه فقد قرن الله تعالى محبته صلى الله عليه وسلم بمحبته سبحانه وتعالى؛ وذلك أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم دليل على محبة العبد لربه سبحانه وتعالى، وسبب من أسباب نيل العبد محبة الله تعالى، قال تعالى:﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقد أكَّد النبي صلى الله عليه وسلم على هذا المعنى، فعن عن أنس عن النبي

---

(٢٨) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم، برقم (٦٨٥١).

صلى الله عليه وسلم قال:" **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار**"[٢٩].

وتظهر حقيقة محبة المؤمن لله ورسوله إذا تعارضت هذه المحبة مع محبوبات الدنيا، وقد قرن الله تعالى بين محبته سبحانه وتعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم وبين محبوبات الدنيا التي يحرص أكثر الناس على نيلها والعمل على تحصيلها، وذلك في قوله تعالى:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة اللّه ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من اللّه ورسوله، وجهاد في سبيله، وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران: **أحدهما** يحبه اللّه ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، **والآخر** تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا للّه

([٢٩]) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم(١٦)، صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم(٤٣).

ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه اللّه، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه، السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة اللّه ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال:﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ ومثلهم الأمهات ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ في النسب والعشرة ﴿ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أي: قراباتكم عموما﴿ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ﴿ وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك﴿ وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ﴾من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ فأنتم فسقة ظلمة﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾الذي لا مرد له﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: الخارجين عن طاعة اللّه، المقدمين على محبة اللّه شيئا من المذكورات"(٣٠).

---

(٣٠) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي صـ ٣٣٢ بتصرف يسير.

فعند المؤمن تأتي محبة الله تعالى في المرتبة الأولى من بين المحبوبات، وفي المرتبة الثانية تأتي بعدها محبة الرسول صلى الله عليه فهي تابعة لمحبة الله تعالى، ثم تأتي بعد ذلك محبة أمور الدنيا المباحة والتي تؤدي محبتها إلى محبة الله ورسوله، ولا يكتمل إيمان المؤمن حتى تكون محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أحب إليه مما سواهما حتى من نفسه التي بين جنبيه، فعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي صلى الله عليه و سلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال النبي صلى الله عليه وسلم:" **لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك** " فقال له عمر: الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي فقال النبي صلى الله عليه و سلم "**الآن يا عمر**"[٣١]

رابعاً- معصية الله ورسوله

إذا كان الله تعالى قد قرن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعته سبحانه وتعالى، فانه قد حذر من معصيته ومعصية رسوله، وقرن بينهما أيضاً في كتابه الكريم، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ

([٣١]) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : **وايم الله** " برقم (٦٢٥٧).

وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ذ كر أهل التفسير أن لهذه الآية سبب نزول، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم انطلق يخطب زينب بنت جحش الأسدية لفتاه زيد بن حارثة، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: "**فانكحيه**" فقالت: يا رسول الله أؤمر في نفسي، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ قالت: قد رضيته لي يا رسول الله مَنكحًا؟ قال:"**نعم**" قالت: إذن لا أعصي رسول الله، قد أنكحته نفسي"(٣٢)، قال الشيخ الزحيلي في تفسيره لهذه الآية:" أي ليس لأي مؤمن أو مؤمنة إذا حكم الله ورسوله بأمر أن يختاروا أمرا آخر، وإنما عليهم الامتثال لأمر الله ورسوله، وتجنب معصيته، وفي هذه الآية قرن الله تعالى أمر رسوله بأمره تعالى؛ لتعظيم أمر رسوله، فصار أمر الله ورسوله واحدا، وقضاؤهما واحدا، فإذا قضى الرسول صلّى الله عليه وسلّم بأمر لم يكن لبشر اختيار غيره، ثم حذر الله تعالى من عصيان أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه

---

(٣٢) جامع البيان، للطبري ٢٠/ ٢٧٢، وإسناده ضعيف لضعف عطية بن سعد العوفي، لكن لأصله شواهد، وأخرجه الطبري عن قتادة مرسلا، وينظر: لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، صـ: ١٥٩.

وسلم فقال: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ أي ومن يخالف أمر الله أو أمر رسوله صلّى الله عليه وسلّم أو يعصي ما نهيا عنه، فقد انحرف عن طريق الهدى والرشاد، ووقع في متاهات الضلال المبين البعيد عن منهج الحق والخير، المؤدي إلى ضياع"(٣٣).

وهذه الآية وإن كان سبب نزولها في شأن زينب بنت جحش إلا أن حكمها عام يشمل كل مؤمن ومؤمنة في كل زمان ومكان، قال الإمام ابن كثير:" فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ولهذا شدد الله تعالى في مسألة عصيان أمره أو أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال:﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣]"(٣٤).

وفي تزويج النبي صلى الله عليه وسلم لزيد ابن حارثة، الذي هو من الموالي، من زينب بنت جحش الهاشمية القرشية، حكماً بالغة، منها

---

(٣٣) التفسير المنير، للزحيلي، ٢٢/ ٢٨، باختصار وتصرف يسير.

(٣٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٦/ ٤٢٣، باختصار وتصرف.

القضاء على فوارق النسب والحسب التي كانت منتشرة في المجتمع الجاهلي، وإعلانا لمبدأ المساواة بين الناس الذي جاء به الإسلام، والتفاضل بين الناس إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح، قال سيد قطب:" أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقق المساواة الكاملة بتزويج المولى زيد ابن حارثة من شريفة من بني هاشم وهي زينب بنت جحش، قريبته صلى الله عليه وسلم؛ ليسقط تلك الفوارق الطبقية بنفسه، في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة لها وقدوة ، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق"(٣٥).

وفي آية أخري يبن الله تعالى أن من عصى الله تعالى فلم يؤمن به وعصى رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يتابعه فإن مصيره في الآخرة نار جهنم، قال تعالى،﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[الجن: ٢٣]، قال الشيخ السعدي:" وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة، وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأجمع عليه سلف الأمة وأئمة هذه الأمة"(٣٦).

---

(٣٥) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٦/ ٨٢، بتصرف يسير.

(٣٦) تفسير السعدي صـ ٨٩١.

وفي آية أخرى يصف الله تعالى عذاب من يتعمد معصية أمر الله وأمر رسوله، بأن الله سوف يعذبه في نار جهنم عذاباً مهينا، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤]، قال الإمام الطبري:" قوله تعالى:﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، يعني: "وله عذاب مذِلٌّ في جهنم من عُذِّب به مُخزٍ له "[٣٧] .

فلخطورة معصية الله ورسوله فقد قرن الله تعالى بينهما في التحذير منهما، فإذا وقف المؤمن أو المؤمنة على أمر الله تعالى أو أمر رسوله صلى الله عليه وسلم فلا ينبغي له أن يعصيهما؛ لأن ذلك طريق للضلال البين الواضح، وصدق الله القائل: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾[الجن: ٢٣].

(٣٧) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٧٢.

المبحث الثالث: صفاته صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم صفات النبي صلى الله عليه وسلم والتي من أجلها بعثه ربه سبحانه وتعالى، وهذه الصفات جاء ذكرها في آية جامعة لها في سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[الأحزاب: ٤٥ – ٤٦]، قال ابن عاشور:" نادى الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بصفات أودعها فيه للتنويه بشأنه، رفعة لمقداره، وبين له فيها أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته وأحوال الأمم السالفة، وذكر له هنا خمس صفات هي: شاهد، ومبشر، ونذير، وداع إلى الله، وسراج منير، وهذه الصفات تنطوي على مجامع الرسالة المحمدية؛ فلذلك اقتصر عليها من بين سائر صفاته الكثيرة"[٣٨].

وقال الشيخ السعدي:" هذه الصفات، التي وصف الله بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها، وهي خمسة أوصاف"[٣٩].

([٣٨]) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٢/ ٥٢)، باختصار، وتصرف يسير.

([٣٩]) تفسير السعدي صـ ٦٦٧، بتصرف يسير.

وهذه الآية في سورة الأحزاب ذكرت خمسا من صفات النبي صلى الله عليه وسلم، وتوجد آية أخرى في سورة الفتح تشبهها في ذكر بعض صفات النبي صلى الله عليه وسلم، وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ ﴾[الفتح: ٨ – ٩]، والمتأمل في آية سورة الفتح يجد أنها ذكرة ثلاثا من صفات النبي صلى الله عليه وسلم خلافاً لأية سورة الأحزاب التي ذكرت خمسا من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر أهل التفسير السبب في ذلك حيث قالوا:" لأن المقام في سورة الأحزاب مقام ذكر الرسول صلّى اللَّه عليه وسلّم، وأكثر السورة في ذكر الرسول صلّى اللَّه عليه وسلّم وأحواله وأوصافه، ففصل في صفاته، واقتصر في سورة الفتح على الثلاث الصفات المتقدمة ، ثم ذكر بعدئذ ما يدل على كونه داعيا وكونه سراجا في قوله تعالى﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ ﴾ [الفتح: ٩] "(٤٠)

وبعض صفات النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في القرآن الكريم جاء ذكرها في الكتب السابق، فعن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن

(٤٠) تفسير الرازي ١٤/ ١٣٤، التفسير المنير للزحيلي (٢٦/ ١٦٤)، تفسير الشنقيطي ٧/ ٤٥٦

عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في التوراة، قال: «**أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيّها النّبيّ إنّا أرْسلْناك شاهدا ومبشّرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صمّا، وقلوبا غلفا**»[٤١] وهذه الصفات سوف نتناولها في هذا المبحث على النحو الآتي:

الصفة الأولى: الشاهد

صفة الشهاد على الناس أول صفة وصف الله تعالى بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، قال الراغب الأصفهاني:" الشَّهَادَةُ: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر، يقال: شَهِدْتُ كذا، وشَهِدْتُ على كذا، أي: حضرته"[٤٢]، قال قتادةأي: ﴿ شَٰهِدٗا ﴾ على أمّته

(٤١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، برقم(٢٠١٨)

(٤٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، صـ ٤٦٥.

بالتّبْليغ إليْهمْ، وعلى سائر الْأمم بتبْليغ أنْبيائهمْ، ونحو ذلك"[٤٣]، وقال الإمام ابن كثير:" قوله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:﴿ شَٰهِدًا ﴾ أي:" لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة"[٤٤]، وعلى هذا القول تكون شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على نوعين:

١ـ شهادته على أمته

وذلك بأن يشهد على من آمن منهم واستجاب لدعوته، ويشهد على من كذب برسالته وعصى أمره، ومن الآيات القرآنية الدالة على هذه الشهادة قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾[المزمل: ١٥ – ١٦]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى ذكره:﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ أي: شاهداً بإجابة من أجاب منكم دعوتي، وامتناع من امتنع منكم من الإجابة، ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ أي: مثل إرسالنا من قبلكم إلى فرعون مصر رسولا بدعائه إلى الحقّ، ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ الذي أرسلناه إليه ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ يقول: فأخذناه أخذا شديدا، فأهلكناه

---

(٤٣) تفسير القرطبي (١٤/ ٢٠٠) تفسير الشوكاني ٦/ ٥٥.

(٤٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٣٩.

ومن معه جميعا"[٤٥]، وقال ابن عاشور:" محمّد صلّى الله عليْه وسلّم شاهد على أمّته بمراقبة جرْيهمْ على الشّريعة في حياته، وهو شاهد على الْمسْتجيبين لدعْوته وعلى الْمعْرضين عنْها، وشاهد على من اسْتجاب للدّعْوة ثمّ بدّل، فلا جرم كان وصف الشاهد أشمل هذه الأوصاف للرسول صلى الله عليه وسلم بوصف كونه رسولاً لهذه الأمة ، وبوصف كونه خاتماً للشرائع ومتمّماً لِمراد الله من بعثة الرسل " [٤٦].

ومن الآيات القرآنية الدالة على شهادة النبي على أمته قوله تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [الحج: ٧٨]،قال الشيخ الزحيلي:" أي إنما جعلناكم أمة عدولا مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم؛ ليكون الرسول محمد صلّى الله عليه وسلم شهيدا عليكم يوم القيامة بتبليغه ما أرسل به إليكم، وتكون شهادة الرسول لهم أن يزكيهم عند الله يوم القيامة، ويشهد بعدالتهم إذا شهدوا على الأمم السابقة، وقبول شهادة النبي صلّى الله عليه وسلم وشهادة أمته يوم القيامة فيها تشريف للنبي صلّى الله عليه وسلم وتشريف لأمته، فإن الله تعالى يصدّق قوله على أمته في دعوى تبليغه إياها، ويجعل أمته أهلا للشهادة على سائر الأمم[٤٧].

---

(٤٥) تفسير الطبري ٢٣/ ٦٩٣، باختصار.

(٤٦) تفسير ابن عاشور ١١/ ٢٨٠،باختصار.

(٤٧) التفسير المنير للزحيلي (١٧/ ٢٨٩)، باختصار.

وقريبا من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[البقرة: ١٤٣]، وقد فسَّر الإمام الطبري شهادة أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم، وشهادة الرسول عليها بقوله:" أي: وكذلك جَعلناكم أمَّة وسَطًا عُدولا؛ لتكونوا شُهداءَ لأنبيائي ورسُلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أُمرَت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكونَ رسولي محمدٌ صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي"(٤٨).

والمتأمل في سياق هذه الآية والآية التي قبلها، يجد أنه في الآية الأولى قدمت شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على شهادة أمته، وفي هذه الآية قدمت شهادة أمة محمد صلى الله عليه وسلم على شهادته صلى الله عليه وسلم ولذلك سبب، وقد تنبه لهذا السبب العلامة المحقق ابن عاشور، حيث قال:" وقدِّمت شهادة الرسول على شهادة أمته في قوله تعالى: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ ﴾[الحج: ٧٨]؛ لأن هذه الآية في مقام التنويه بالدّين الذي جاء به الرسول، والرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، بينما قدمت شهادة الأمة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ

---

(٤٨) تفسير الطبري ٣/ ١٤٥)،

شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ لأن هذه الآية صُدّرت بالثناء على الأمّة فكان ذكر شهادة الأمة أهمّ"[٤٩]

٢ـ شهادة النبي على الأمم الأخر

ومن الآيات الدالة على شهادة النبي على الأمم الأخرى قوله تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢ ﴾ [النساء: ٤١ – ٤٢] ، قال سيد قطب في ظلاله عند هذه الآية:" كيف يكون الحال يومذاك؟ فكل أمة حاضرة، وعلى كل أمة شهيد بأعمالها وهؤلاء الكافرون واقفين في عرصات القيامة وقد انتدب الرسول صلى الله عليه وسلم للشهادة عليهم، وهم في حضرة الخالق الذي كفروا به، وفي اليوم الآخر الذي لم يؤمنوا به، وفي مواجهة الرسول الذي عصوه، والسياق القرآني يرسم عليهم ظلال الخزي والمهانة، والخجل والندامة، ويصف حالهم بقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴾ "[٥٠].

([٤٩]) تفسير ابن عاشور ٩/ ٣٢٨، بتصرف.

([٥٠]) في ظلال القرآن ، لسيد قطب٢/ ١٣١ .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مر بهذه الآية يتفاعل معها حتى يبكى، وذلك لهول ذلك الموقف يوم القيامة، وما فيه من الشهادة على الأمم، فعن عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال قال لي النبي صلى الله عليه و سلم:" **اقرأ علي**"، قلت يا رسول الله آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال: " **نعم** " . فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾، قال: " **حسبك الآن**"، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان"(٥١).

وقد جاء في السنة النبوية ما يؤيد شهادة النبي صلى الله عليه وسلم على الناس يوم القيامة، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:" **يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت ؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ فذلك قوله جل ذكره** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]"(٥٢).

فالصفة الأولى من صفات النبي صلى الله عليه وسلم هي صفة الشهادة على أمته وعلى الأمم الأخرى، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم تنتقل

---

(٥١) صحيح البخاري، برقم(٤٧٦٣).

(٥٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير ، باب وكذلك جعلناكم أمة وسطا، برقم ٤٢١٧

صفة الشهادة على الأمم إلى أمته صلى الله عليه وسلم، فلتقم هذه الأمه بالشهادة على الأمم الأخرى من خلال تبليغها لهذا الدين وايصالها رسالة رب العالمين؛ حتى تكون قائمة بالشهادة على الأمم بعد وفاة سيد المرسلين.

الصفة الثانية: البشير

الصفة الثانية من صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم صفة المبشر، وقد جاء ذكر هذه الصفة بعد صفة الشاهد في سورة الأحزاب في قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، قال الراغب الأصفهاني:" يقال للخبر السارّ: البِشارة والبُشْرَى، قال تعالى:﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾[يونس: ٦٤]، وبَشَّرْتُ الرجل: أخبرته بخبر سارّ بسط بشرة وجهه؛ وذلك أنّ النفس إذا سرّت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر "(٥٣).

والمراد بكونه صلى الله عليه وسلم مبشرا، أي أنه مبشرا لأمته ومن آمن به واتبعه بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، قال ابن عاشور في تفسيره:" المُبَشِّر: المُخْبِر بالبُشْرى والبشارة، وهي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية، والنبي صلى الله عليه وسلم مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم، وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى، فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمأمورات

---

(٥٣) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني صـ ١٢٥، باختصار وتصرف يسير.

متضمنة المصالح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل "(٥٤).

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن الله تعالى أعاد ذكر هذه البشارة في نفس سورة الأحزاب، وبين أن هذه البشارة فضل كبير من الله تعالى لعباده المؤمنين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، قال أهل التفسير عند هذه الآية:" ذكر الله تعالى في هذه الآية، المُبَشَّرِين، وهم المؤمنون، وذكر المُبَشَّر به، وهو الفضل الكبير، والمراد بالفضل الكبير الجنة وما أوتوا فيها من النعيم، كما قال قتادة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَٰتِ ٱلْجَنَّٰتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى: ٢٢]، وذلك أنه مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم، من ثواب اللّه على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حِكَمْ الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المترتبة على ما يرهب منه، ليكون عونًا على الكف عما حرم اللّه"(٥٥).

وفي موطن آخر من كتاب الله تعالى، بَيَّن الله تعالى أن الجنة هي التي أمر الله تعالى نبيه أن يبشر بها عباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ

---

(٥٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور،٢٢/ ٥٢.

(٥٥) تفسير الألوسي ١٦/ ١٦١ تفسير السعدي صـ ٦٦٧، باختصار.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ البشارة: أصلها الخبرُ بما يُسَرُّ به المخبَرُ، وفي هذا الآية أمر من الله تعالى لنبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بإبلاغ بشارته خلقَه الذين آمنوا بالله تعالى، وآمنوا وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند ربه، وصدّقوا إيمانهم ذلك وإقرَارهم بأعمالهم الصالحة، فقال له: يا محمد، بشِّرْ من صدَّقك أنك رسولي، وأن ما جئتَ به من الهدى والنور فمن عندي، وحقَّق تصديقَه ذلك قولا بأداء الصالح من الأعمال التي افترضتُها عليه، وأوجبتُها في كتابي على لسانك عليه ، أن له جنات تجري من تحتها الأنهار، خاصةً، دُون من كذَّب بك وأنكرَ ما جئته به من الهدى من عندي وعاندك "[٥٦].

وفي موطن آخر يأمر الله تعالى نبينا محمد أن يبشر عباد الله المؤمنين بأن لهم قدم صدق عند ربهم، وذلك في قوله تعالى:﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ [يونس: ٢]، وقد اختلف أهل التفسير في المراد بقدم الصدق، الذي أمر الله تعالى نبيه أن يبشر به عباد الله المؤمنين،

---

(٥٦) تفسير الطبري ،(١/ ٣٨٣)، باختصار.

وقد ذكر الإمام الماوردي هذه الأقوال، حيث قال قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ فيه خمسة تأويلات: **أحدها** : أن لهم ثواباً حسناً بما قدموا من صالح الأعمال، قاله ابن عباس، **الثاني:** سابق صدق عند ربهم أي سبقت لهم السعادة، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس، **الثالث:** أن لهم شفيع صدق يعني محمداً صلى الله عليه وسلم يشفع لهم، قاله مقاتل بن حيان، **الرابع** : أن لهم سلف صدق تقدموهم بالإيمان، قاله مجاهد وقتادة، **والخامس:** أن لهم السابقة بإخلاص الطاعة"(٥٧).

وقد رجح الإمام الطبري قول ابن عباس المتقدم، فقال:" وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: أن لهم أعمالا صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثوابَ"(٥٨)، وهو الظاهر؛ لأن أعمال المؤمنين سبب من أسباب دخولهم الجنة، وفوزهم ببشارة الله تعالى لهم.

ويذكر الإمام ابن الجوزي بعض التساؤلات، ويجيب عنها، حول قدم الصدق الذي أمر الله تعالى نبيه أن يبشر به عباد الله المؤمنين، فقال:" فإن قيل: لِم آثر القَدَم هاهنا على اليد والعرب تستعمل اليد في موضع الإحسان؟ **فالجواب:** أن القدم ذكرت هاهنا للتقدم؛ لأن العادة جارية بِتَقَدُّمْ

---

(٥٧) تفسير الماوردي ٢/ ١٥٦. تفسير القرطبي (٨/ ٣٠٦)، تفسير ابن الجوزي ٣/ ٢٥٠.

(٥٨) تفسير الطبري ١٥/ ١٦.

الساعي على قدميه، والعرب تجعلها كناية عن العمل الذي يُتقدَّم فيه ولا يقع فيه تأخُّر، فإن قيل: ما وجه إضافة القدم إلى الصدق؟ **فالجواب**: أن ذلك مدح للقدم، وكل شيء أضفته إلى الصدق، فقد مدحته؛ ومثله قوله تعالى: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٥]" (٥٩).

(٥٩) تفسير ابن الجوزي (زاد المسير) (٣/ ٢٥٠

التبشير في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم مليئة بالبشارات، يمكن إجمال الحديث عن ذلك في العناصر الآتية:

أولا: النبي والبشارات

وقد كان صلى الله عليه وسلم تعجبه البشارات، وكان يكثر من كلمة أبشر، فعن أبي موسى الأشعريّ– رضي الله عنه– قال: كنت عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو نازل بالجعرانة بين مكّة والمدينة، ومعه بلال فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجل أعرابيّ. فقال: ألا تنجز لي، يا محمّد ما وعدتني؟ فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**أبشر**"، فقال له الأعرابيّ: أكثرت عليّ من أبشر. فأقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أبي موسى وبلال، كهيئة الغضبان، فقال: "**إنّ هذا قد ردّ البشرى فاقبلا أنتما**"، فقالا: قبلنا يا رسول الله، ثمّ دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقدح فيه ماء، فغسل يديه ووجهه فيه، ومجّ فيه. ثمّ قال:"**اشربا منه. وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا**"، فأخذا القدح. ففعلا ما أمرهما به

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنادتهما أمّ سلمة من وراء السّتر: أفضلا لأمّكما ممّا في إنائكما، فأفضلا لها منه طائفة"[٦٠] .

وكان صلى الله عليه وسلم يتضايق ممن يرد عليه بشارته، فعن عمران بن حصين- رضي الله عنهما- قال: جاء نفر من بني تميم إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال:" **يا بني تميم أبشروا**"، فقالوا: بشّرتنا فأعطنا، فتغيّر وجهه. فجاءه أهل اليمن، فقال: "**يا أهل اليمن اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم**"، قالوا: قبلنا، فأخذ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يحدّث بدء الخلق والعرش، فجاء رجل قال: يا عمران راحلتك تفلّتت. ليتني لم أقم "[٦١]

ثانيا: جبريل والبشارات

ولأهمية البشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته، فقد كان جبريل عليه السلام ينزل بأمر الله تعالى مبشراً للنبي صلى الله عليه وأمته ببعض البشارات، ومن ذلك تبشيره له ولأمته بإعطاء الله تعالى لهما سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، ، فعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: بينما جبريل قاعد عند النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، سمع نقيضا[٦٢] من فوقه .

---

(٦٠) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين رضي الله عنهما برقم (٢٤٩٧).

(٦١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: { وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه }. برقم (٣٠١٨).

(٦٢) **النقيض**: الصوت، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير (٤/ ٢١٣).

فرفع رأسه فقال:" **هذا باب من السّماء فتح اليوم، لم يفتح قطّ إلّا اليوم**"، فنزل منه ملك، فقال: "**هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلّا اليوم**"، فسلّم وقال:" **أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلّا أعطيته**" (٦٣) .

عن أبي طلحة– رضي الله عنه– أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقلنا: يا رسول الله إنّا لنرى البشرى في وجهك؟ فقال: "**إنّه أتاني الملك فقال: يا محمّد إنّ ربّك يقول أما يرضيك أنّه لا يصلّي عليك أحد إلّا صلّيت عليه عشرا ولا يسلّم عليك أحد إلّا سلّمت عليه عشرا**" (٦٤)

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال:" أتى جبريل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم. فقال: " **يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب. فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السّلام من ربّها عزّ وجلّ–**

---

(٦٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة، برقم (٨٠٦)

(٦٤) رواه الحاكم في مستدركه بسند صحيح، ووافقه الذهبي (٢/ ٤٢٠) .

ومنّي، وبشّرها ببيت في الجنّة من قصب [٦٥] **لا صخب** [٦٦] **فيه ولا نصب** [٦٧] " [٦٨].

وعن أبي ذرّ – رضي الله عنه– قال: خرجت ليلة من اللّيالي، فإذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمشي وحده ليس معه إنسان قال: فظننت أنّه يكره أن يمشي معه أحد. قال: فجعلت أمشي في ظلّ القمر، فالتفت فرآني فقال:" **من هذا؟**" فقلت: أبو ذرّ، جعلني الله فداءك قال:" **يا أبا ذرّ تعال**" قال: فمشيت معه ساعة، فقال:«**إنّ المكثرين هم المقلّون يوم القيامة إلّا من أعطاه الله خيرا، فنفح فيه يمينه وشماله، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرا**" قال: فمشيت معه ساعة، فقال:" **اجلس ههنا**" قال: فأجلسني في قاع حوله حجارة. فقال لي:" **اجلس ههنا حتّى أرجع إليك**" قال: فانطلق في الحرّة حتّى لا أراه فلبث عنّي فأطال اللّبث، ثمّ إنّي سمعته وهو مقبل وهو يقول: "**وإن سرق وإن زنى**" قال: فلمّا جاء لم أصبر فقلت: يا نبيّ الله جعلني الله فداءك، من تكلّم في جانب الحرّة؟ ما سمعت أحدا يرجع إليك شيئا. قال:" **ذاك جبريل عرض لي في جانب الحرّة فقال: بشّر أمّتك**

([٦٥]) "**القصب**" المراد به قصب اللؤلؤ المجوف، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ١/ ٦٧٥.

([٦٦])**الصَّخَب**: الضَّجَّة، واضطرابُ الأصواتِ للخِصَام، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٤).

([٦٧]) النصب: المشقة والتعب، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ٢/ ٣٣١.

([٦٨]) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة ، اب تزويج النبي صلى الله عليه و سلم خديجة برقم (٣٦٠٩).

أنّه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنّة" فقلت:" يا جبريل وإن سرق وإن زنى"؟ قال: نعم قال: قلت: "وإن سرق وإن زنى" ؟ قال: نعم قال قلت: "**وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن شرب الخمر**"[٦٩].

ثالثا: تبشيره بالجنة

وقد كان صلى الله عليه وسلم يبشر أصحابه بكل ما يسرهم في دنياهم وآخرتهم، ومن ذلك تبشيره لأبي بكر وعمر وعثمان بالجنة، فعن أبي موسى الأشعريّ- رضي الله عنه- أنّه توضّأ في بيته ثمّ خرج، فقال: لألزمنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولأكوننّ معه يومي هذا، قال فجاء المسجد فسأل عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: خرج ووجّه ههنا، فخرجت على إثره أسأل عنه حتّى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب- وبابها من جريد- حتّى قضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حاجته فتوضّأ، فقمت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسّط قفّها[٧٠] وكشف عن ساقيه ودلّاهما في البئر، فسلّمت عليه ثمّ انصرفت فجلست عند الباب، فقلت: لأكوننّ بوّاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فجاء أبو

---

(٦٩) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلون، برقم (٦٠٧٨)، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، برقم (٩٤).

(٧٠) القَفّ: ما ارْتَفع حول البئر يكون يابساً في الغالب، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ٤/ ١٤٣.

بكر فدفع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، ثمّ ذهبت فقلت: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن، فقال :"**ائذن له وبشّره بالجنّة**" . فأقبلت حتّى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم **يبشّرك بالجنّة**، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معه في القفّ ودلّى رجليه في البئر كما صنع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكشف عن ساقيه.

ثمّ رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضّأ ويلحقني، فقلت: إن يرد الله بفلان خيرا (يريد أخاه) يأت به، فإذا إنسان يحرّك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطّاب، فقلت على رسلك، ثمّ جئت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسلّمت عليه فقلت: هذا عمر بن الخطّاب يستأذن، فقال: "**ائذن له وبشّره بالجنّة**"، فجئت فقلت: ادخل وبشّرك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجنّة، فدخل فجلس مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في القفّ عن يساره ودلّى رجليه في البئر، ثمّ رجعت فجلست فقلت: إن يرد الله بفلان خيرا يأت به، فجاء إنسان يحرّك الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: عثمان بن عفّان، فقلت: على رسلك، فجئت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته، فقال:"**ائذن له وبشّره بالجنّة على بلوى تصيبه**"، فجئته

فقلت له: ادخل وبشّرك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجنّة على بلوى تصيبك. فدخل فوجد القفّ قد ملأ، فجلس وجاهه من الشّقّ الاخر"[٧١]

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: كنّا قعودا حول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معنا أبو بكر وعمر في نفر فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من بين أظهرنا فأبطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا وفزعنا فقمنا، فكنت أوّل من فزع فخرجت أبتغي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى أتيت حائطا للأنصار لبني النّجّار فدرت به هل أجد له بابا فلم أجد فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة، والرّبيع الجدول فاحتفزت كما يحتفز الثّعلب[٧٢] فدخلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:" **أبو هريرة؟**" فقلت: نعم يا رسول الله، قال: "**ما شأنك**"، قلت: كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا فخشينا أن تقتطع دوننا ففزعنا فكنت أوّل من فزع فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثّعلب وهؤلاء النّاس ورائي فقال:" **يا أبا هريرة**" وأعطاني نعليه قال:" **اذهب بنعليّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلّا الله مستيقنا بها قلبه فبشّره بالجنّة**"[٧٣].

---

(٧١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم:" **لو كنت متخذا خليلا** "، برقم (٣٤٧١)، وصحيح مسلم، برقم (٢٤٠٣).

(٧٢) احتفزت: تضاممت ليسعني المدخل، شرح صحيح مسلم، للنووي ١/ ١٠٨.

(٧٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، برقم (٣١) الحديث مختصرا.

وعن أنس بن مالك– رضي الله عنه–:أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسا في بيته منكّسا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرّ، كان يرفع صوته فوق صوت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقد حبط عمله وهو من أهل النّار، فأتى الرّجل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأخبره أنّه قال: كذا وكذا، فرجع إليه المرّة **الاخرة ببشارة عظيمة**، فقال: اذهب إليه فقل له: "**إنّك لست من أهل النّار، ولكنّك من أهل الجنّة**" "[٧٤].

رابعا: استبشاره بمن يسلم

وكان صلى الله عليه وسلم يستبشر كثيرا بكل من يسلم ويدخل في دين الله تعالى، فعن عمرو بن العاص– رضي الله عنه وهو في سياقة الموت– أنّه بكى طويلا وحوّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا **أبتاه أما بشّرك** رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكذا؟ **أما بشّرك** رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكذا؟ قال فأقبل بوجهه فقال: إنّ أفضل ما نعدّ شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدا رسول الله، إنّي قد كنت على أطباق ثلاث [٧٥]، لقد رأيتني وما أحد أشدّ بغضا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

(٧٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الحجرات، برقم(٤٥٦٥) .

(٧٥) كنت على أطباق ثلاث: أي على أحوال ثلاث، شرح صحيح مسلم، للنووي ١/ ٢٣٧.

منّي ولا أحبّ إليّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو متّ على تلك الحال لكنت من أهل النّار.

فلمّا جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال فقبضت يدي، قال:" **مالك يا عمرو؟**" قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: "**تشترط بماذا؟**" قلت: أن يغفر لي، قال: "**أما علمت أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأنّ الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأنّ الحجّ يهدم ما كان قبله؟**" وما كان أحد أحبّ إليّ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينيّ منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأنّي لم أكن أملأ عينيّ منه، ولو متّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنّة. ثمّ ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها. فإذا أنا متّ فلا تصحبني نائحة ولا نار. فإذا دفنتموني فشنّوا عليّ التّراب شنّا ثمّ أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها، حتّى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربّي"[٧٦]

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيّد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه رسول الله

([٧٦]) صحيح مسلم، كتاب الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، برقم (١٢١) .

صلّى الله عليه وسلّم فقال: "**ماذا عندك يا ثمامة؟**"، فقال: عندي يا محمّد خير، إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى كان بعد الغد فقال: "**ما عندك يا ثمامة؟**" قال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى كان من الغد فقال: "**ما عندك يا ثمامة؟**"فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**أطلقوا ثمامة**"، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثمّ دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله، يا محمّد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلّها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحبّ الدّين كلّه إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحبّ البلاد كلّها إليّ، وإنّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ "**فبشّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأمره أن يعتمر**" ، فلمّا قدم مكّة قال له قائل: أصبوت ؟ فقال: لا

ولكنّي أسلمت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتّى يأذن فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "[٧٧]،

وعن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: كنت أدعو أمّي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ما أكره، فأتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله إنّي كنت أدعو أمّي إلى الإسلام فتأبى عليّ فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره فادع الله أن يهدي أمّ أبي هريرة. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**اللهمّ اهد أمّ أبي هريرة**"، فخرجت مستبشرا بدعوة نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف[٧٨] فسمعت أمّي خشف قدميّ ، فقالت مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثمّ قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال: قلت: يا رسول الله **أبشر قد استجاب** الله دعوتك وهدى أمّ أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: "**خيرا**"، قال: قلت يا رسول الله ادع الله أن يحبّبني أنا وأمّي إلى عباده المؤمنين ويحبّبهم إلينا. قال: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

([٧٧]) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، برقم (١٧٦٤).

([٧٨]) مجاف: مغلق.

"**اللهمّ حبّب عبيدك هذا- يعني أبا هريرة- وأمّه إلى عبادك المؤمنين وحبّب إليهم المؤمنين**" فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلّا أحبّني"[٧٩]

خامسا: تبشيره بالتوبة

وكان صلى الله عليه وسلم يبادر في تبشير من قبل الله تعالى توبته، ومن ذلك تبشيره لكعب ابن مالك بتوبة الله عليه، عندما تخلف عن غزوة تبوك، عن كعب بن مالك- رضي الله عنه- قال: لم أتخلّف عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوة غزاها قطّ. إلّا في غزوة تبوك ... الحديث وفيه: فبينا أنا جالس على الحال الّتي ذكر الله- عزّ وجلّ- منّا. قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول، بأعلى صوته: **يا كعب بن مالك أبشر**. قال فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، قال فاذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتوبة الله علينا، حين صلّى صلاة الفجر فذهب النّاس يبشّروننا. فذهب قبل صاحبيّ مبشّرون، وركض رجل إليّ فرسا، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل، فكان الصّوت أسرع من الفرس فلمّا جاءني الّذي سمعت **صوته يبشّرني**، فنزعت له ثوبيّ فكسوتهما إيّاه ببشارته. والله ما أملك غيرهما يومئذ.

([٧٩]) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه، (٢٤٩١).

واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتلقّاني النّاس فوجا فوجا، يهنّئوني بالتّوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك. حتّى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالس في المسجد وحوله النّاس، فقام طلحة ابن عبيد الله يهرول حتّى صافحني وهنّأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلمّا سلّمت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال، وهو يبرق وجهه من السّرور ويقول: "**أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك**" قال فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال "**لا. بل من عند الله**" وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سرّ استنار وجهه، كأنّ وجهه قطعة قمر. قال وكنّا نعرف ذلك"(٨٠).

ومن ذلك تبشيره لأم المؤمنين عائشة بتبرئة الله تعالى لها من حادثة الإفك، فعن عائشة- رضي الله عنها- زوج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالت: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد أن يخرج سفرا، أقرع بين نسائه. فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معه. الحديث ... وفيه: قالت، فلمّا سرّي عن رسول الله صلّى الله عليه

---

(٨٠) صحيح البخاري، باب حديث كعب بن مالك ، كتاب المغازي، برقم(٤١٥٦ وصحيح مسلم، رقم (٢٧٦٩) واللفظ له.

وسلّم، وهو يضحك، فكان أوّل كلمة تكلّم بها أن قال: "**أبشري يا عائشة أمّا الله فقد برّأك** ... "الحديث"[٨١].

سادساً: تبشيره بالنصر

وكان صلى الله عليه وسلم يبشر أصحابه بالنصر على أعدائهم، وأنهم سوف يحصلون منهم على الغنائم الكثيرة، ويبشِّر بالجنة من كانت له جهود كبيرة في تحقيق ذلك النصر، فعن أبيّ بن كعب– رضي الله عنه– أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ قال: "**بشّر هذه الأمّة بالسّناء والرّفعة والنّصر والتّمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الاخرة للدّنيا لم يكن له في الاخرة نصيب**" [٨٢].

وعن سهل بن الحنظليّة، أنّهم ساروا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم حنين فأطنبوا السّير، حتّى كانت عشيّة، فحضرت الصّلاة عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله، إنّي انطلقت بين أيديكم حتّى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال:" **تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله**" ثمّ قال: "**من يحرسنا اللّيلة؟**" قال أنس بن أبي مرثد الغنويّ: أنا يا رسول الله،

([٨١]) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، برقم (٢٧٧٠)، الحديث مختصرا.

(٨٢) مستدرك الحاكم، بسند صحيح ووافقه الذهبي، (٤/ ٣١١).

قال:" **فاركب**" فركب فرسا له، فجاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**استقبل هذا الشّعب**" **حتّى تكون في أعلاه، ولا نغرّنّ من قبلك اللّيلة**" فلمّا أصبحنا خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى مصلّاه فركع ركعتين ثمّ قال: "**هل أحسستم فارسكم؟**" قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فثوّب بالصّلاة، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي وهو يلتفت إلى الشّعب حتّى إذا قضى صلاته وسلّم قال: "**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**" فجعلنا ننظر إلى خلال الشّجر في الشّعب فإذا هو قد جاء حتّى وقف على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسلّم فقال: إنّي انطلقت حتّى كنت في أعلى هذا الشّعب حيث أمرني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا أصبحت اطّلعت الشّعبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**هل نزلت اللّيلة؟**" قال: لا إلّا مصلّيا أو قاضيا حاجة، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «**قد أوجبت** (٨٣) **فلا عليك أن لا تعمل بعدها**"(٨٤).

سابعاً: حاجتنا للتبشير

والمتأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه يجد أنه صلى الله عليه وسلم كان يغلب جانب البشارة على النذارة والترغيب على الترهيب،

---

(٨٣) أوجبت: أي لنفسك الجنة.

(٨٤) رواه أبو داود، برقم (٢٥٠١) ، وصححه الألباني.

فعن أبي بردة عن أبيه عن جده: أن النبي صلى الله عليه و سلم بعث معاذا وأبا موسى إلى اليمن قال: **يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا** "[٨٥] ، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال:" **إنّ الدّين يسر ولن يشادّ الدّين أحد إلّا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرّوحة**[٨٦] **وشيء من الدّلجة** [٨٧]"[٨٨] فما أحوج الدعاة إلى الله تعالى في هذا العصر إلى أن يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب، فيغلبوا جانب البشارة على النذارة، والتيسير على التعسير، فهذا منهج أصيل في دعوته صلى الله عليه وسلم.

---

(٨٥) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف، برقم(٢٨٧٣)، وصحيح مسلم، برقم(١٧٣٣).

(٨٦) الغَدْوَة: هي السير أوّل النهار نَقِيضها الرَّوحة، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ٣/ ٦٤٩.

(٨٧) الدلجة: السير آخر الليل، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ٢/ ٣٠٧.

(٨٨) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، برقم (٣٩).

الصفة الثالثة: النذير

الأصل في جانب الدعوة إلى الله تعالى أن يقدم جانب البشارة على النذارة، والترغيب على الترهيب، لكن بعض الأنفس لا تتأثر بذلك، وهنا تأتي أهمية الصفة الثالثة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم وهي صفة النذير، قال الراغب الأصفهاني في مفرداته:" الإنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويف، كما أنّ التّبشير إخبار فيه سرور، والنَّذِيرُ يقع على كلّ شيء فيه إنذار، إنسانا كان أو غيره، يقال: قد نَذِرْتُ أي: عَلِمْتُ ذلك وحَذِرْتُ"(٨٩).

والمتأمل في كتاب الله تعالى يجد أن صفتي البشارة والنذارة من صفتي الرسول صلى الله عليه وسلم قد وردتا معا في كثير من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[الأحزاب: ٤٥]، وفي قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[الفتح: ٨]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[الإسراء: ١٠٥] وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[الفرقان: ٥٦]، وفي جميع هذه المواطن تقدمت صفة البشارة على صفة النذارة؛ والسبب كما يقول ابن عاشور:" لأن

---

(٨٩) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني صـ ٧٩٧)، باختصار.

النبيء صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته"[٩٠].

وقد أمر الله تعالى نبينا محمد بالقيام بمهمة الإنذار في آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤]، فقام النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المهمة خير قيام، فعن أبي هريرة قال لما أنزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص فقال:" **يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها**[٩١] "[٩٢].

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لأمته مثلا لإنذارهم وشبه نفسه بالنذير العريان، الذي أنذر قومه من عدو قادم عليه، فمن صدَّقه نجا ومن لم يصدقه هلك، فعن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى

---

(٩٠) لتحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٢/ ٥٢.

(٩١) "**سأبلها ببلالها**" أي أصِلكم في الدنيا ولا أُغْنِي عنكم من اللّه شيئاً النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (٤/ ١٦٦)

(٩٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وأنذر عشيرتك الأقربين، برقم (٣٤٨).

الله عليه و سلم:" **مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قوما فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم** "(٩٣)، قال الإمام النووي في بيان معنى "**النذير العريان:**" قال العلماء: أصله أن الرجل اذا أراد إنذار قومه واعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به اليهم إذا كان بعيدا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا طليعة ورقيبهم؛ وانما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر، وأبلغ في استحثاثهم في التأهب"(٩٤).

(٩٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه و سلم برقم (٦٨٥٤)، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه و سلم على أمته، برقم(٢٢٨٣).

(٩٤) شرح صحيح مسلم للنووي (١٥/ ٤٨)، باختصار.

أنواع النذر

أمر الله تعالى في كتابه الكريم، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينذر الناس بعدد من النُذُر ومن هذه النذر ما يأتي:

أولا: الإنذار بالقرآن الكريم

القرآن الكريم هو وسيلة الرسول صلى الله عليه وسلم للإنذار، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في كتابه الكريم في آيات متعددة منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام: ١٩]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" أي أوحى الله إليّ هذا القرآن الذي تلوته عليكم؛ لأجل أن أنذركم به، وأنذر به من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة، وفي هذه الآية من الدلالة على شمول انذار القرآن الكريم لمن سيوجد، كشموله لمن قد كان موجوداً وقت النزول"[٩٥]، وقال القرظي:" من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وكلَّمه"[٩٦]

وفي موطن آخر يخبر الله تعالى أنه لا ينتفع بإنذار القرآن الكريم من أغلق حواسه عن التأمل بما في القرآن الكريم من المواعظ والآيات، قال

---

(٩٥) تفسير الشوكاني، ٢/ ٣٩٧، بتصرف يسير.

(٩٦) تفسير ابن الجوزي، ٢/ ٣٠٩

تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية:" أي: إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها- بالوحى الصادق الناطق بحصوله وفظاعة أهواله، وقد أمرني ربى بذلك، وهاأنذا قد قمت بما أمرني به، فإن لم تجيبوا داعى الله وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعليكم النكال والوبال لا علىّ، فما حالكم مع الإنذار إلا حال الصم الذين لا يسمعون دعوة الداعي"[٩٧].

وفي موطن آخر بيَّن الله تعالى أنه لا ينتفع بإنذار القرآن الكريم إلا أهل الخشية والخوف من الله تعال، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: أنذر، يا محمد، بالقرآن الذي أنزلناه إليك، القومَ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علمًا منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله، دائبون في السعي فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله، ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم، ﴿ وَلِىٌّ ﴾ ينصرهم فيستنقذهم منه، ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ، يشفع لهم عند الله تعالى ذكره فيخلصهم من عقابه ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، أي: أنذرهم كي يتقوا الله في

([٩٧]) . تفسير المراغي ١٧/ ٣٨، باختصار .

أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سَخطه باجتناب معاصيه"(٩٨).

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن المؤمنين من أهل الخشية هم الذين ينتفعون بالنذارة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾[فاطر: ١٨]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" أي: إن الذين يقبلون النذارة وينتفعون بها هم الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وهم أهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها؛ لأن الخشية للّه تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ أي: ومن زكى نفسه بالتنقِّي من العيوب، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلَّى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق، فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله

(٩٨) تفسير الطبري ١١/ ٣٧٣ ، باختصار.

شيء، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها"[٩٩].

ثانياً: الإنذار بعذاب الله

وقد ورت آيات قرآنية فيها أمر من الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لينذر الخلق من عذاب الله تعالى في اليوم الآخر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي: صف لهم صفة تلك الحال وحذرهم من الأعمال الموجبة للعذاب الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله، ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي نادمين على ما فعلوا سائلين للرجعة في غير وقتها، ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي: ردَّنا إلى الدنيا فإنا قد أبصرنا، ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾، وهذا كله لأجل التخلص من العذاب وإلا فهم كذبة في هذا الوعد، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟

---

(٩٩) تفسير السعدي صـ ٦٨٧.

لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[الأنعام: ٢٨]،ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين حنثكم في إقسامكم، وكذبكم فيما تدعون"(١٠٠).

ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾[النبأ: ٤٠]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى:﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعني: يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا؛ لأن كل ما هو آت آت.﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾أي: يعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، وهذه الآية كقوله: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف : ٤٩] ،﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا ترابا، ولم يكن خُلِقَ، ولا خرج إلى الوجود؛ وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدي الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة، وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين لحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم

---

(١٠٠) تفسير السعدي صـ ٤٢٧.

بينها قال لها: كوني ترابا، فتصير ترابا. فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ أي: كنت حيوانا فأرجع إلى التراب "(١٠١).

ثالثاً: الإنذار بيوم القيامة

يوم القيامة يوم رهيب عصيب، يُحدث الله تعالى فيه أهولاً تشيب منها الولدان، وقد سماه الله تعالى بأسماء كثيرة، وما يهمنا في هذا المقام ذكر اسمائها التي أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينذر الناس منها، فمن ذلك يوم الحسرة، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[مريم: ٣٩]، قال السعدي في تفسيره لهذه الآية:" الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقي شقاوة لا سعادة بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تتقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وأي: حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على

---

(١٠١) تفسير ابن كثير (٨/ ٣١٠)

وجه لا يتمكن من الرجوع، ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟!.

والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الإنذار العظيم لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكرة، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها، من أولها إلى آخرها، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، فمن فعل خيرا فليحمد الله، ومن وعمل غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه"[١٠٢].

وأهل الغفلة المعرضين عن انذار النبي صلى الله عليه وسلم لهم تزداد حسرتهم في الآخرة، يوم أن يؤتى بالموت كهيئة الكبش فيذبح بين الجنة والنار، فعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟** قال فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت **قال فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال فيشرئبون**[١٠٣] **فينظرون ويقولون: نعم هذا الموت قال: فيؤمر**

([١٠٢]) تفسير السعدي صـ ٤٩٣.

([١٠٣]) "**فيشرئبون لصوته**" أي: يرفعون رؤوسهم لينظروا إليه، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثر، ٢/ ٤٥٥.

به فيذبح، قال ويقال: يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت، قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾"(١٠٤).

ومن أسماء يوم القيامة يوم الآزفة وقد أنذر الله تعالى العباد من ذلك اليوم بقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، قال الشيخ الشنقيطي في تفسيره لهذه الآية:" الإنذار، والإعلام المقترن بتهديد خاصة، ﴿ ٱلْآزِفَةِ ﴾ القيامة، أي أنذرهم يوم القيامة، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة؛ وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أي قربها، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ ﴾، ومعنى كون القلوب لدى الحناجر، في ذلك الوقت فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان، **أحدهما:** بيان شدة الهول، وفظاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب١٠:١١]، **والوجه الثاني:** ما قاله قتادة وغيره، من أن

---

(١٠٤) مسند أحمد، برقم (١١٠٨١) قال شعيب الأرناؤوط عن هذه الحديث: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

قلوبهم يومئذ ترتفع من أماكنها في الصدور حتى تلتصق بالحلوق، فتكون لدى الحناجر، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا، وهذا القول هو ظاهر القرآن"[١٠٥].

ومن أسماء يوم القيامة التي أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينذر الناس منها يوم الجمع ؛ حيث ينقسم الناس فيه إلى فريقين ، فريق في الجنة وفريق في السعير، قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾[الشورى: ٧]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" والاقتصار على إنذار أم القرى ومن حولها؛ لأنهم المقصود بالرد عليهم لإنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم بعث للناس كافة كما قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سبأ: ٢٨] والمعنى: لتنذر أهل القرى ومن حولها ما ينذرونه من العذاب في الدنيا والآخرة، وفي قوله تعالى:﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ ﴾ أعيد فعل تنذر؛ لزيادة تهويل أمر يوم الجمع؛ لأن تخصيصه بالذكر بعد عموم الإنذار يقتضي تهويله؛ ولأن تعدية فعل وتنذر إلى يوم الجمع تعدية مخالفة لإنذار أم القرى؛ لأن يوم الجمع

([١٠٥]) تفسير الشنقيطي ٧/ ٧٢، باختصار وتصرف.

مفعول ثان لفعل وتنذر، أي وتنذر الناس يوم الجمع، فمفعول وتنذر الثاني هو المنذر به ومفعول لتنذر الأول هو المنذر، سمي يوم الجمع لأن الخلائق تجمع فيه للحساب"[١٠٦].

فصفة الإنذار من صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، وقد قام بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومطلوب من الدعاة من أمته الاقتداء به في القيام بهذه الصفة؛ حتى تقوم الحجة على الناس وأن لا يكون لهم عذر بين يدي الله تعالى يوم القيامة.

([١٠٦]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٥/ ٣٦، باختصار وتصرف.

الصفة الرابعة: الداعي إلى الله تعالى

ومن صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي جاء ذكرها في القرآن الكريم أنه داعٍ إلى الله تعالى بإذنه، وقد جاء ذكر هذه الصفة في قوله تعالى:﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" أي: أرسله اللّه، يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها؛ وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعوهم إليه، بتعريفهم بربهم وبصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى اللّه بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى اللّه، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بِإِذْنِ الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره"[١٠٧].

والمتأمل في صفات النبي صلى الله عليه وسلم والواردة في سورة الأحزاب يجد أنها جاءت كلها مطلقة إلا صفة الدعوة فقد جاءت مقيدة بالإذن من الله تعالى، كما قال تعالى:﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾، وقد وجه أهل التفسير ذلك بقولهم:" لأن من يقول عن ملك: إنه ملك الدنيا لا غيره

([١٠٧]) تفسير السعدي صـ ٦٦٧.

لا يحتاج فيه إلى إذن منه؛ فإنه وصفه بما فيه، وكذلك إذا قال: من يطيعه يسعد، ومن يعصه يشقى يكون مبشراً ونذيراً ولا يحتاج إلى إذن من الملك في ذلك، وأما إذا قال: تعالوا إلى قصر الملك، فإنه يحتاج فيه إلى إذنه؛ لهذا قال تعالى: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾، وزيادة ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ ليفيد أن الله أرسله داعياً إليه ويسّر له أمر الدعوة إليه مع ثقل أمرها عليه، فأطلق اسم الإذن على التيسير على وجه المجاز المرسل ونظيره قوله تعالى خطاباً لعيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ ﴾ [المائدة : ١١٠]، والتقييد بقوله: ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ لبيان أنه صلّى الله عليه وسلّم لم يدع الناس إلى ما دعاهم إليه من وجوب إخلاص العبادة له سبحانه، من تلقاء نفسه، وإنما دعاهم إلى ذلك بأمر الله تعالى، وإذنه ومشيئته، وللإشارة إلى أن هذه الدعوة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا صاحبها إذن الله تعالى للنفوس بقبولها"[١٠٨].

وهذه الدعوة التي هي من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ووظائفه ذكر الله تعالى في كتابه الكريم لها ضوابط؛ حتى تكون دعوة ناجحة وتؤتي أكلها في أوساط الناس، ومن هذه الضوابط ما جاء ذكره في قوله

([١٠٨]) تفسير الرازي ١٢/ ٣٦٢ ، تفسير الألوسي ١٦/ ١٦٠، تفسير ابن عاشور ١١/ ٢٨١ التفسير الوسيط لطنطاوي ١١/ ٢٢٢.

تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال الإمام ابن القيم في تفسيريه لهذه الآية:" جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه، يُدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن"(١٠٩).

وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى يأمر الله تعالى بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالقيام بالدعوة إليه، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج: ٦٧]، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [القصص: ٨٧]، وقوله تعالى:﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد تركزت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للخلق بدعوتهم للإيمان بالله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الحديد ٨]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين

(١٠٩) التفسير القيم لابن القيم صـ ٣٥٩.

أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به"[١١٠].

عناية النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله تعالى

اعتنى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله تعالى عناية بالغة، وهذه العناية تجلَّت في عدة أمور نتناولها في هذا المقام على النحو الآتي:

أولاً: ترغيبه في الدعوة إلى الله تعالى

رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم أمته بالقيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وذكر في هذا المقام عدة أحاديث، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:" **من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**"[١١١]، وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال:" **بلّغوا عنّي ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل**

---

(١١٠) تفسير ابن كثير٨/ ١١.

(١١١) صحيح مسلم، كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ،برقم (٢٦٧٤).

ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النّار"[١١٢]، وعن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال:" **نضّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها، فربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**"[١١٣].

وكان صلى الله عليه وسلم يدعو أمته لليقظة والحذر من الفتين، فعن عبد الرّحمن بن عبد ربّ الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظلّ الكعبة، والنّاس مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليه. فقال: كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سفر. فنزلنا منزلا فمنّا من يصلح خباءه، ومنّا من ينتضل [١١٤] ومنا من هو في جشره[١١٥]، إذ نادى منادي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: الصّلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:"**إنّه لم يكن نبيّ قبلي إلّا كان حقّا عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإن أمّتكم هذه جعل عافيتها في أوّلها، وسيصيب آخرها بلاء**

---

(١١٢) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

(١١٣) صحيح الجامع الصغير، برقم (٦٧٦٦).

(١١٤) ومنا من ينتضل: هو من المناضلة، وهي المراماة بالنشاب، شرح صحيح مسلم للنووي – ٦/ ٣١٨.

(١١٥) في جشره: الجشر قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم. النهاية، في غريب الحدث، لابن الأثير (١/ ٢٧٣)

وأمور تنكرونه، وتجيء فتنة فيرقّق بعضها بعضا[١١٦] **وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. ثمّ تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه فمن أحبّ أن يزحزح عن النّار ويدخل الجنّة، فلتأته منيّته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى النّاس الّذي يحبّ أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما، فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**" فدنوت منه فقلت له: أنشدك الله آنت سمعت هذا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه. وقال سمعته أذناي ووعاه قلبي..." [١١٧].

ثانيا: بيانه لقواعد الدعوة إلى الله تعالى

ومن حرصه صلى الله عليه وسلم على نجاح أصابه في الدعوة إلى الله تعالى، فقد كان يبين لهم قواعدها في كل مناسبة ينتدبهم إليها، فهذا معاذ ابن جبل رضي الله عنه لما أرسله النبي صلى الله إلى اليمن أمرة بأن يتدرج في الدعوة إلى الله تعالى، فعن معاذ بن جبل– رضي الله عنه– قال: بعثني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال:" **إنّك تأتي قوما من أهل**

---

(١١٦) "**يرقق بعضها بعضا**": يصير بعضها رقيقا ، أي : خفيفا لعظم ما بعده ، فالثاني يجعل الأول رقيقا، شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ٣١٨

(١١٧) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، برقم (١٨٤٤).

الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كلّ يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم، فإن أطاعوا لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم واتّق دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب"[١١٨].

ولمّا بعث النبي صلى الله عليه وسلم على ابن أبي طالب رضي الله عنه لفتح خيبر أمره أولا أن يدعوهم إلى الله تعالى، فعن سهل بن سعد– رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال يوم خيبر:" **لأعطينّ هذه الرّاية رجلا يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله**"، قال: فبات النّاس يدوكون[١١٩] ليلتهم أيّهم يعطاها، فلمّا أصبح النّاس غدوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كلّهم يرجو أن يعطاها، فقال: "**أين عليّ بن أبي طالب**"، فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: "**فأرسلوا إليه**"، فأتي به فبصق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في عينيه، ودعا له فبرأ، حتّى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الرّاية، فقال عليّ: يا رسول الله أقاتلهم حتّى يكونوا مثلنا، فقال: "**انفذ على رسلك**[١٢٠] **حتّى تنزل**

---

(١١٨) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن برقم(٤٠٩٠)

(١١٩) "**يدوكون**" أي: يخوضون ويموجون، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير ٣/ ١٧١.

(١٢٠)"**على رسلك**" بالكسر أي: اتئد فيهم، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ٢/ ١٣١.

بساحتهم، ثمّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، من حقّ الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النّعم" (١٢١).

بل إن الحرب في الإسلام تتمتع بجملة من الأخلاق الدعوية التي لم يعرف لها العالم مثيلاً إلا في ظل الإسلام الحنيف، فعن بريدة– رضي الله عنه– قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، إذا أمّر أميرا على جيش أو سريّة أوصاه في خاصّته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثمّ قال:" **اغزوا باسم الله، في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيّتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثمّ ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثمّ ادعهم إلى التّحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنّهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحوّلوا منها، فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الّذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكفّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم،**

---

(١٢١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب علي بن أبي طالب، برقم (٣٤٩٨)

وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمّة الله وذمّة نبيّه، فلا تجعل لهم ذمّة الله ولا ذمّة نبيّه ولكن اجعل لهم ذمّتك وذمّة أصحابك؛ فإنّكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمّة الله وذمّة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنّك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا"(١٢٢).

ثالثا: استغلاله تجمعات المسلمين في الدعوة إلى الله تعالى

وكان صلى الله عليه وسلم يستغل أي تجمع عام للمسلمين في المناسبات المختلفة للدعوة إلى الله تعالى، ومن هذه التجمعات أيام الحج، وكان صلى الله عليه وسلم يدعو أمته للقيام بحقوق بعضهم تجاه بعض، فعن أبي بكرة- رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خطب النّاس فقال: "**ألا تدرون أيّ يوم هذا؟**"، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: حتّى ظننّا أنّه سيسمّيه بغير اسمه، فقال: "**أليس بيوم النّحر؟**" قلنا: بلى يا رسول الله، قال:"**أيّ بلد هذا؟ أليست بالبلدة الحرام؟**" قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "**فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلّغت؟**"، قلنا: نعم،

---

(١٢٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير ، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، برقم (١٧٣١) .

قال:" **اللهمّ اشهد، فليبلّغ الشّاهد الغائب، فإنّه ربّ مبلّغ يبلّغه من هو أوعى له،** لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض "[١٢٣].

وفي هذه التجمعات العامة كان صلى الله عليه وسلم يدعو أمته للوصية بالنساء خيرا، واعطائهن حقوقهن، فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدّثني أبي، أنّه شهد حجّة الوداع مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فحمد الله وأثنى عليه وذكّر ووعظ، فذكر في الحديث قصّة، فقال: "**ألا واستوصوا بالنّساء خيرا، فإنّما هنّ عوان**[١٢٤] **عندكم ليس تملكون منهنّ شيئا غير ذلك، إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فاهجروهنّ في المضاجع، واضربوهنّ ضربا غير مبرّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلا، ألا إنّ لكم على نسائكم حقّا، ولنسائكم عليكم حقّا، فأمّا حقّكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقّهنّ عليكم أن تحسنوا إليهنّ في كسوتهنّ وطعامهنّ**"[١٢٥].

([١٢٣]) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، برقم(٦٦٦٧) باب: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض

(١٢٤)"**عوان عندكم** " أي أسراء، أو كالأسراء، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٤٣٤)

(١٢٥) سنن الترمذي، برقم (١١٦٣) ، وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، والحديث أصله في مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، برقم (١٢١٨)، الحديث مختصرا.

وفي هذه التجمعات كان صلى الله عليه وسلم يخص النساء بالدعوة إلى الله تعالى، يأمرهن بالصدقات، ويحذرهن من الصفات الذميمة التي قد توقعهن في النار، فعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال: شهدت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصّلاة يوم العيد، فبدأ بالصّلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثمّ قام متوكّئا على بلال، فأمر بتقوى الله، وحثّ على طاعته، ووعظ النّاس، وذكّرهم، ثمّ مضى، حتّى أتى النّساء فوعظهنّ وذكّرهنّ، فقال:" **تصدّقن فإنّ أكثركنّ حطب جهنّم**"، فقامت امرأة من سطة النّساء [١٢٦] سفعاء الخدّين [١٢٧]، فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: "**لأنّكنّ تكثرن الشّكاة** [١٢٨]، **وتكفرن العشير**[١٢٩]، قال: فجعلن يتصدّقن من حليّهنّ يلقين في ثوب بلال من أقرطتهنّ وخواتمهنّ"[١٣٠].

وصعد صلى الله عليه وسلم ذات مرة على الصفا ينادي الناس للاجتماع، فلما اجتمعوا أخذ يدعوهم إلى الله تعالى يدعو الناس إلى الله تعالى، فعن ابن عباس قال: لما نزلت﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤]

---

(١٢٦) "**من سطة النساء**" أي: امرأة من وسط النساء جالسة في وسطهنّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، لمحمد بن عمر المديني (٣/ ٤١٣).

(١٢٧) "**سفعاء الخدين** أَيْ: فِيهَا تَغَيُّر وَسَوَاد، شرح صحيح مسلم، للنووي ٣/ ٢٧٨.

(١٢٨) الشكاة: الشكوى، شرح صحيح مسلم، للنووي ٣/ ٢٧٨.

(١٢٩) تكفرن العشير: أي يجحدن الإحسان لضعف عقولهن وقلة معرفتهن، شرح صحيح مسلم، للنووي ٣/ ٢٧٨.

(١٣٠) صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين،، برقم (٨٨٥).

صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فجعل ينادي: " **يا بني فهر يا بني عدي**" لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال:" **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟** " قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا . قال: " **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**"، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت:﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(١٣١).

رابعا: دعوته لكل من يسأله

ومن حرصه صلى الله عليه وسلم على الدعوة إلى الله تعالى، أنه كان يدعو كل من يسأله ويبن له ما استشكل من أمور دينه، فعن معاذ بن جبل- رضي الله عنه- قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنّة ويباعدني من النّار، قال: "**لقد سألتني عن عظيم، وإنّه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت**" ، ثمّ قال: "**ألا أدلّك على أبواب الخير، الصّوم جنّة، والصّدقة تطفأ الخطيئة كما يطفأ الماء النّار، وصلاة الرّجل من جوف اللّيل**"، قال: ثمّ تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[السجدة: ١٦] ، ثمّ قال: "**ألا أخبرك برأس الأمر كلّه وعموده وذروة سنامه**» . قلت: بلى يا رسول

(١٣١) صحيح البخاري ، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء، برقم(٤٤٩٢).

الله، قال: "**رأس الأمر الإسلام وعموده الصّلاة وذروة سنامه الجهاد**"، ثمّ قال: "**ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه**" ، قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، قال:"**كفّ عليك هذا**"، فقلت: يا نبيّ الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟. قال: " **ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يكبّ النّاس في النّار على وجوههم أو على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم**"(١٣٢).

وعن أبي أيّوب– رضي الله عنه– قال جاء رجل إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: دلّني على عمل أعمله يدنيني من الجنّة، ويباعدني من النّار، قال: "**تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصل ذا رحمك**"، فلمّا أدبر، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**إن تمسّك بما أمر به دخل الجنّة**" (١٣٣).

عن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: إنّ أعرابيّا أتى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: دلّني على عمل إذا عملته دخلت الجنّة، قال:" **تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصّلاة المكتوبة، وتؤدّي الزّكاة المفروضة، وتصوم رمضان**" ، قال: والّذي نفسي بيده لا أزيد على هذا. فلمّا ولّى قال

---

(١٣٢) سنن الترمذي، برقم (٢٦١٦) ، وقال: حسن صحيح واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الجامع ..

(١٣٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، برقم (١٣).

النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "**من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا**[١٣٤] .

وكان صلى الله عليه وسلم يمارس الدعوة لأصحابه عمليا، ويعضهم في ذلك مواعظ بليغة، فعن العرباض بن سارية- رضي الله عنه- قال: وعظنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب"، فقال رجل: إنّ هذه موعظة مودّع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟. قال:" **أوصيكم بتقوى الله، والسّمع والطّاعة وإن عبد حبشيّ؛ فإنّه من يعش منكم ير اختلافا كثيرا، وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنّها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين عضّوا عليها بالنّواجذ**"[١٣٥].

فالدعوة إلى اله تعالى صفة أصيلة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قام بها صلى الله عليه وسلم خير قيام، فحري بكل مسلم أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في جانب الدعوة إلى الله تعالى، وليدعو إلى الله تعالى بحسب وسعه وطاقته.

---

(١٣٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، برقم (١٥).

(١٣٥) سنن الترمذي، برقم(٢٦٧٦) ، وقال: حديث حسن صحيح.

الصفة الخامسة: السراج المنير

ومن صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي وصفه الله تعالى بها في كتابه الكريم أنه سراجا منيرا، قد جاء هذا الوصف في ختام آية الأحزاب التي تحدثت عن صفاته صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥ – ٤٦]، قال أهل اللغة:" السِّرَاجُ: المصباح الزّاهر بفتيلة ودهن، ويعبّر به عن كلّ مضيء، يقال: سَرَّجْتُ كذا: جعلته في الحسن كالسّراج، وسمي السراج سراجا لحُسْنه وضيائه، وقوله عز وجل: ﴿ سِراجاً مُنِيراً ﴾ إنما يريد مثل السراج الذي يستضاء به، وإن جعلنا ﴿سراجاً ﴾ نعتاً للنبي صلى الله عليه وسلم كان حسناً، ويكون معناه هادياً كأَنه سراج يهتدى به في الظُّلَمِ "[١٣٦]

ووصف الله تعالى لنبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه ﴿ سِراجاً مُنِيراً ﴾؛ وذلك لأن الله تعالى:" جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به، أو أمدّ الله بنور نبوّته نور البصائر، كما يمدّ بنور السراج نور الأبصار، وصفه

---

(١٣٦) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، صـ : ٤٠٦، لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٢٩٧) معجم مقاييس اللغة،لا بن فارس (٣/ ١٢٢).

بالإنارة؛ لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سليطه ودقت فتيلته، أما نور هدايته فهي دائمة مستمرة"(١٣٧).

وقد يتساءل البعض قائلاً: لماذا لم يصف الله تعالى نبيه بأنه شمسا والشمس أقوى من السراج؟ يجب عن هذا التساؤل الإمام الرازي بقوله:" وذلك أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شيء والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فإذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه ، وكذلك إن غاب، والنبي عليه السلام كان كذلك إذ كل صحابي أخذ منه نور الهداية، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " **أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم** "(١٣٨)؛ لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور، وإذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه، وكذلك الصحابي إذا مات فالتابعي يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ من الصحابي إلا قول النبي عليه السلام وفعله، وأنوار المجتهدين كلهم من النبي عليه السلام"(١٣٩) .

ويزيد ابن عاشور هذا الوصف للنبي صلى الله عليه وسلم ايضاحا فيقول:" في قوله تعالى:﴿ سِراجاً مُنِيراً ﴾ تشبيه بليغ بطريق الحالية وهو طريق جميل، أي أرسلناك كالسراج المنير في الهداية الواضحة التي لا

---

(١٣٧) الكشاف ،للزمخشري، (٣/ ٥٤٧) البحر المحيط ، لأبي حيان (٨/ ٤٨٧)

(١٣٨) السلسلة الضعيفة ، للألباني، برقم(٥٨).

(١٣٩) مفاتيح الغيب، للرازي ١٢/ ٣٦٢، وينظر: تفسير الشعراوي، صـ : ٧٥٠٦،

لبس فيها والتي لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها وأوقفت الناس على دخائلها، كما يضيء السراج الوقاد ظلمة المكان.

وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبيء صلى الله عليه وسلم من البيان وإيضاح الاستدلال وانقشاع ما كان قبله في الأديان من مسالك للتبديل والتحريف فشمل ما في الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه في الدين والعلم، فإن العلم يشبه لنور فناسبه السراج المنير، وهذا وصف شامل لجميع، الأوصاف التي وصف بها آنفا فهو كالتذييل لها، ووصف السراج بـ ﴿ مُنِيراً ﴾ مع أن الإنارة من لوازم السراج، هو كوصف الشيء بالوصف المشتق من لفظه في قوله: شعر شاعر، وليل أليل؛ لإفادة قوة معنى الاسم في الموصوف به الخاص فإن هدى النبيء صلى الله عليه وسلم هو أوضح الهدى، وإرشاده أبلغ إرشاد"(١٤٠).

فالبشرية قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت غارقة في ظلمات الجاهلية فأنقذها الله تعالى بالسراج المنير محمد صلى الله عليه وسلم، فاهتدى بنوره من شاء الله تعالى له الهداية، والبشرية اليوم في أمس الحاجة لأنوار رسالته صلى الله عليه فمعظمها يعيش في ظلمات الكفر والشرك، وغارقة في أوحال الذوب والمعاصي؛ وهذا الحال يُحتم على دعاة

---

(١٤٠) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٢/ ٥٤)، باختصار يسير.

الإسلام حمل سرج الدعوة ومصابيح الهداية وتبلغهما إلى الغارقين في الظلمات في كل زمان ومكان.

المبحث الرابع: أخلاقه صلى الله عليه وسلم من خلال القرآن الكريم

تخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بكل خلق كريم جاء ذكره في القرآن الكريم، وقد وصف الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأنه تخلق بكل خلق عظيم، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" أي: عاليا مستعليا بخلقك الذي من الله عليك به، فكان للنبي صلى الله عليه وسلم من الأخلاق أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان صلى الله عليه وسلم سهلا لينا، قريبا من الناس، مجيبا لدعوة من دعاه، قاضيا لحاجة من استقضاه، جابرا لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائبا، وإذا أراد أصحابه منه أمرا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسا له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال صلى الله عليه وسلم"[١٤١].

([١٤١]) تفسير السعدي صـ ٨٧٨.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل أخلاق القرآن واقعا عمليا في حياته وسلوكه، فعن سعد بن هشام بن عامر قال أتيت عائشة فقلت يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت:" **كان خلقه القرآن**"، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾"[١٤٢]، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن الغاية من بعثته اتمام مكارم الأخلاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**"[١٤٣]، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم جملة من الأخلاق التي تخلق بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه الأخلاق سوف نتناول بعضها في هذا المبحث على النحو الآتي:

([١٤٢]) مسند الإمام أحمد بأحكام الأرناؤوط ، برقم (٢٤٦٤٥)، قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح ، وينظر: صحيح الأدب المفرد، برقم (١٤٤) للألباني، وقال عنه الألباني: حديث صحيح لغيره .

([١٤٣]) السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم(٤٥).

أولاً: خلق الرحمة

خلق الرحمة من أبرز الاخلاق القرآنية التي تخلق بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول عن نفسه إنه رحمة مهداة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إنما أنا رحمة مهداة**"[١٤٤]، وقد تمثل النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخلق واقعا عمليا في حياته مع أصحابه، قال تعالى﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، هذه الآية نزلت تعقيبا على غزوة أحد التي خالف فيها بعض الصحابة من الرماة أوامر النبي صلى الله عليه وسلم فنزلوا من الجبل، وتولى البعض منهم فرارا من أرض الغزوة، فنتج عن ذلك فشل المسلمين في تحقيق النصر على أعدائهم، وظهور المشركين عليهم، حتى أصيب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة، وهذه الأفعال يستحق من فعلها اللوم والتعنيف بمقتضى الطبيعة الإنسانية، لكن النبي صلى الله عليه وسلم الرحيم بأمته ألان لهم الخطاب، وعاملتهم بالحسنى؛ بسبب تجذر خلق الرحمة في نفسه صلى الله عليه وسلم، قال الشيخ الزحيلي في

([١٤٤]) صحيح الجامع، للألباني، برقم : (٢٣٤٥).

تفسيره لهذه الآية:" دلت آية ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ على تخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بخلق الرحمة، اختصاصه بمكارم الأخلاق، فكان يجمع بين دواعي السمو، كشرف النسب والحسب، وطهر النفس، والسخاء، وفصاحة البيان، وخاتم النبيين، وبين التواضع التام، فكان يرقع ثوبه ويخصف نعله ويجامل أهله والمستضعفين، وذكر خلق الرحمة للنبي صلّى الله عليه وسلّم يقصد به الاقتداء به؛ لأنه الأسوة الحسنة للمؤمنين، وهو قدوتهم في الأخلاق والأقوال والأفعال"(١٤٥).

ويبيّن سيد قطب أثر خلق الرحمة الذي تخلق به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على الناس الذين عاش بينهم وشاهدوا منه هذا الخلق واقعا عمليا في حياته صلى الله عليه وسلم، فيقول:" كان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيما بأصحابه ، فما ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئا من أعراض هذه الحياة دونهم، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه برحمة وسماحة ندية، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه ؛ نتيجة لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم رحمة من نفسه الكبيرة الرحيبة، وكان هذا كله رحمة من الله به وبأمته، يذكرهم بها في هذا الموقف العصيب، فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى إلى قلب

(١٤٥) التفسير المنير للزحيلي (٤/ ١٤٣)، باختصار وتصرف.

كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائما الرحمة والاهتمام والرعاية،"[١٤٦].

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يقتصر في تعامله بخلق الرحمة مع من آمن به من أصحابه وأمته فقط بل شمل بخلق الرحمة حتى أعداءه، كيف لا وقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، } قال ابن عباس :" رحمته صلى الله عليه وسلم عامة للبرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن آمن به تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن كفر به صرفت عنه العقوبة إلى الموت والقيامة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٣]"[١٤٧]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" وصف الله محمدا صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بالرحمة ولم يصف بها غيره من الأنبياء، واعلم أن انتصاب ﴿ رَحۡمَةٗ ﴾ على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفا من أوصافه فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة . ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر فيها، ووقوع الوصف مصدرا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة

---

(١٤٦) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٤٧٦، باختصار وتصرف.

(١٤٧) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٦٥، بتصرف يسير.

صفة متمكنة من إرساله، وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين، **الأول:** تخلّق نفسه الزكية بخلق الرحمة، فمحمدا صلى الله عليه وسلم فطره الله تعالى على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته، وقد زينه الله بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة على الخلق، **وأما المظهر الثاني:** من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته، أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة لأنها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين"[١٤٨].

([١٤٨]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٩/ ٢١٩،باختصار وتصرف.

مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم

تجلت رحمته صلى الله عليه وسلم في مظاهر متعددة، نتناول بعضها على النحو الآتي:

رحمته صلى الله عليه وسلم بالأطفال

والتأثر لما يصيبهم من مرض أو موت، فعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: دخلنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أبي سيف القين [١٤٩] ، وكان ظئرا [١٥٠] لإبراهيم عليه السّلام. فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إبراهيم فقبّله وشمّه، ثمّ دخلنا عليه بعد ذلك- وإبراهيم يجود بنفسه- فجعلت عينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تذرفان، فقال له عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه-: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنّها رحمة، ثمّ أتبعها بأخرى، فقال صلّى الله عليه وسلّم:" **إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلّا ما يرضى ربّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون** "[١٥١]، وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- قال «أرسلت ابنة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليه: إنّ ابنا لي قبض، فأتنا. فأرسل يقرأ السّلام ويقول: "**إنّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلّ عنده بأجل**

---

(١٤٩) "**أبي سيف** " هو زوج مرضعته إبراهيم، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ٣/ ٣٤.

(١٥٠)**الظِّئْر**: المُرْضِعَةُ لغَيرَ ولَدها، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٥٤)

(١٥١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب " **إنا بك لمحزنون** " برقم(١٢٤١).

مسمّى. فلتصبر ولتحتسب" . فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينّها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصّبيّ ونفسه تتقعقع [١٥٢] قال حسبته أنّه قال: كأنّها شنّ [١٥٣] ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟. فقال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنّما يرحم الله من عباده الرّحماء**"[١٥٤].

ومن رحمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يعود من يمرض من أصحابه ويرحم لحالهم، ويعزيهم في مصابهم، فعن عبد الله بن عمر– رضي الله عنهما– قال:" اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعوده مع عبد الرّحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن مسعود– رضي الله عنهم– فلمّا دخل عليه فوجده في غاشية أهله[١٥٥]، فقال: قد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا رأى القوم بكاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم

---

(١٥٢) " **تقعقع**" أي تضطرب وتتحرك، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير، (٣/ ٤٠٣)

(١٥٣) **الشن**: وعاء قديم من أدم، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، (٥/ ١٦١)

(١٥٤) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه و سلم " **يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**"، رقم (١٢٢٤).

(١٥٥) الغاشية: أي الذين يغشونه من أهله للخدمة وغيرها، وقيل الغاشية: هي الداهية من شر أو مكروه، والمراد ما يتغشاه من كرب الوجع الذي هو فيه لا الموت، فتح الباري، لابن حجر (٤/ ٣٥٥).

بكوا. فقال: "**ألا تسمعون؟ إنّ الله لا يعذّب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذّب بهذا**- وأشار إلى لسانه- **أو يرحم. وإنّ الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه**"، وكان عمر رضي الله عنه- يضرب فيه بالعصا، ويرمي بالحجارة ويحثي بالتّراب "(١٥٦)

رحمته صلى الله عيه وسلم بأعدائه

ولم يكن صلى الله عليه وسلم رحيما بالمؤمنين به فقط، بل رحم أهل الكفر، وبلغ من رحمته صلى الله عليه وسلم بأعدائه من أهل الكفر أنه لم يدعُ عليهم، رغم ما فعلوه به، فلما شجّ وجهه يوم أحد شقّ ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم امتنع عن ذلك رحمة بهم، فعن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال:" **إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**"(١٥٧)، وقد رحم أهل الطائف، الذين رفضوا وأغروا به الصبيان والسفهاء حتى رجموه وأدموا قدميه، فلم يدع عليهم، فعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- زوج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّها قالت للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟. قال: "**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم**

---

(١٥٦) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض، برقم (١٢٤٢).

(١٥٧) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، برقم (٢٥٩٩).

العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت، وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثمّ قال: يا محمّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا"[١٥٨] .

فالرحمة خلق أصيل من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم التي أثني الله تعالى عليه به في كتابه الكريم، فحري بكل مسلم ومسلمة أن يتخلق بهذا الخلق، ويكون أسوته وقدته في ذلك محمد صلى الله عليه وسلم.

([١٥٨]) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، برقم(٣٠٥٩)، صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه و سلم من أذى المشركين والمنافقين، رقم(١٧٩٥).

ثانيا: خلق التواضع

كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم آية في التواضع، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتمثل هذا الخلق واقعا عمليا في حياته، كيف لا وقد أمر ربه بخفض الجناح والتواضع لمن تبعه من أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، قال ابن عباس: "أي: ارفق بهم، وتواضع لهم، ولا تغلظ عليهم[١٥٩]، وقال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتواضع للمؤمنين، فقال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه ، بسط جناحه ، ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفا لتواضع الإنسان لأتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أي : وقور ساكن ، والجناحان من ابن آدم جانباه ، ومنه:﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] [١٦٠].

وفي آية أخرى جعل الله تعالى خلق التواضع ضمن أربعة أخلاق مهمة ينبغي لكل داعية إلى الله تعالى أن يتخلق بها، وهي الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، البداية بإنذار الأقارب قبل الأباعد، و خفض الجناح تواضعا لمن تبعه من أهل الإيمان، ومنها التوكل على الله وحده، وذلك في قوله

---

(١٥٩) زاد المسير، لابن الجوزي ٤/ ٧٤.

(١٦٠) فتح القدير، للشوكاني ٤/ ١٩٤، باختصار وتصرف.

تعالى:﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[الشعراء: ٢١٣ – ٢١٧]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع حفض جناحه يريد الدنو، وكذلك يصنع إذا لاعب أنثاه فهو راكن إلى المسالمة والرفق، أو الذي يتهيأ لحضن فراخه، وفي ضمن هذه التمثيلية استعارة مكنية، والجناح تخييل، وقد شاعت هذه التمثيلية حتى صارت كالمثل في التواضع واللين في المعاملة. وضد ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدة"[١٦١].

وقال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى:﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾أي: بلين جانبك، ولطف تواضعك، وحسن خلقك معهم، وقد فعل صلى الله عليه وسلم، ذلك كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، فهذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، بعض المسلمين حرم

([١٦١]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٤/ ٨٣.

التواضع والرفق في دعوته، فتراه شرس الأخلاق مع المسلمين، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، إن رأى منهم معصية، أو سوء أدب، هجرهم، ومقتهم، وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، فكل ذلك لا يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به.

قد حصل من هذه المعاملة، من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمَّل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ في أمر من الأمور، ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، أي: فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بتواضع وخفض للجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه، وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم، أن قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم"[١٦٢].

([١٦٢]) تفسير السعدي، صـ ٥٩٨، باختصار وتصرف.

مظاهر تواضع النبي صلى الله عليه وسلم

أما أخبار تواضعه صلى الله عليه وسلم فكثيرةً جدا، وقد حفلت سيرة العطرة بنماذج متعددة من تواضعه، وسوف نتناول بعض هذه النماذج على النحو الآتي:

أولا: لا يحب المدح

ومن تواضعه **صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يعجبه المدح**، وكان صلى الله عليه وسلم أهل لكل مدح حسن؛ إلا إنه كان يترفع عن ذلك تواضعا، فعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- أنّه سمع عمر- رضي الله عنه- يقول على المنبر: سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: "**لا تطروني كما أطرت النّصارى ابن مريم، فإنّما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**"(١٦٣) وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا خير البريّة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "**ذاك إبراهيم عليه السّلام**" "(١٦٤)، وعن ابن عبّاس- رضي

---

(١٦٣) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم، برقم (٣٢٦١).

(١٦٤) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه و سلم، برقم (٢٣٦٩) .

الله عنهما- عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "**ما ينبغي لعبد أن يقول إنّي خير من يونس بن متّى**" "(١٦٥).

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم حبه للمساكين ودعوته لربه أن يحشره في زمرت المساكين، فعن أبي سعيد الخدريّ- رضي الله عنه- قال: أحبّوا المساكين فإنّي سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول في دعائه: "**اللهمّ أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة** "(١٦٦).

ثانيا: المشاركة في العمل

فمن تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان يشارك أصحابه في العمل العام، وكان صلى الله عليه وسلم لا يستنكف من ذلك، ومن ما يدل على ذلك أنه شارك أصحابه في بناء المسجد الذي بناه في المدينة بعد الهجرة، وكان ينقل معهم اللّبن المستخدمة في ذللك البنا، فعن عروة بن الزّبير- رضي الله عنهما- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لقي الزّبير في ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشّام، فكسا الزّبير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكر ثياب بياض. وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من مكّة، فكانوا يغدون كلّ غداة إلى الحرّة

---

(١٦٥) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام، برقم (٢٣٧٧) .

(١٦٦) صحيح الترمذي، للألباني، برقم (١٩١٧) ..

فينتظرونه، حتّى يردّهم حرّ الظّهيرة، فانقلبوا يوما بعدما أطالوا انتظارهم، فلمّا أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم[١٦٧] لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه مبيّضين يزول بهم السّراب، فلم يملك اليهوديّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدّكم الّذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السّلاح، فتلقّوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بظهر الحرّة، فعدل بهم ذات اليمين حتّى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل، فقام أبو بكر للنّاس، وجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صامتا، فطفق من جاء من الأنصار ممّن لم ير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحيّي أبا بكر، حتّى أصابت الشّمس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأقبل أبو بكر حتّى ظلّل عليه بردائه، فعرف النّاس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند ذلك، فلبث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسّس المسجد الّذي أسّس على التّقوى، وصلّى فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ ركب راحلته، فسار يمشي معه النّاس، حتّى بركت عند مسجد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة، وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدا للتّمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر سعد بن زرارة، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين

---

(١٦٧) "**لأطم**" بالضم: بناء مرتفع، وجمعه آطام، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٥٤).

بركت به راحلته :"**هذا إن شاء الله المنزل**"، ثمّ دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الغلامين فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجدا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقبله منهما هبة حتّى ابتاعه منهما، ثمّ بناه مسجدا، **وطفق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينقل معهم اللّبن في بنيانه ويقول- وهو ينقل اللّبن:**

هذا الحمال لا حمال خيبر ... هذا أبرّ ربّنا وأطهر

ويقول:

اللهمّ إنّ الأجر أجر الآخره ... فارحم الأنصار والمهاجره

فتمثّل بشعر رجل من المسلمين لم يسمّ لي" "[١٦٨]

وقد شارك أصحابه في حفر الخندق، وكسر بنفسه الصخرة العظيمة التي اعترضتهم في وسط الخندق، وأجاب دعوة جابر ابن عبد لله في ذلك اليوم ، فعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال: إنّا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية [١٦٩] شديدة فجاءوا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق فقال: "**أنا نازل**" ثمّ قام وبطنه معصوب بحجر- ولبثنا ثلاثة أيّام لا نذوق ذواقا- فأخذ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المعول

([١٦٨]) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي صلى الله عليه و سلم وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩٤).

(١٦٩) "**الكدية**" هي القطعة الصلبة من الارض، النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٧/ ٢١١).

فضرب في الكدية فعاد كثيبا أهيل [١٧٠]، فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شيئا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق [١٧١] وطحنت الشّعير حتّى جعلنا اللّحم بالبرمة [١٧٢]، ثمّ جئت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافيّ[١٧٣] قد كادت أن تنضج، فقلت: فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال:" **كم هو؟**" فذكرت له، فقال: كثير طيّب. قال: " **قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التّنّور حتّى آتي**"، فقال: "**قوموا**"، فقام المهاجرون والأنصار، فلمّا دخل على امرأته، قال: ويحك جاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: "**ادخلوا ولا تضاغطوا**"، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللّحم ويخمّر البرمة والتّنّور إذا أخذ منه، ويقرّب إلى أصحابه ثمّ ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتّى شبعوا وبقي بقيّة قال: "**كلي هذا وأهدي، فإنّ النّاس أصابتهم مجاعة**" [١٧٤].

---

(١٧٠) "**كثيبا أهيل**" أي رملا سائلا، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير٥/ ٦٧٧.

(١٧١) "**العَنَاقُ**" أنثى المَعز، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ٣/ ٢٩١.

(١٧٢)" **البرمة** " القدر مطلقا، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ١/ ١٤٠.

(١٧٣) "**الأثافي**" هي: الحجارة التي تُنْصَبُ وتُجْعَل القدر عليها، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير، (١/ ٣٠.

(١٧٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، برقم (٣٨٧٥).

وعن البراء بن عازب- رضي الله عنهما- قال: كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ينقل التّراب يوم الخندق حتّى اغبرّ بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبّت الأقدام إن لاقينا

إنّ الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بها صوته: أبينا، أبينا"(١٧٥).

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوم ببعض الأعمال المنزلية في بيته، فعن عروة بن الزّبير- رضي الله عنهما- قال: سأل رجل عائشة- رضي الله عنها- هل كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعمل في بيته؟ قالت: نعم. كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخصف نعله، ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته"(١٧٦)، وعن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- وقد سئلت عمّا كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يصنع في أهله قالت: كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصّلاة قام إلى الصّلاة"(١٧٧).

---

(١٧٥) صحيح البخاري، كتاب القدر، باب وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، برقم(٦٢٤٦)

(١٧٦) شرح السنة، للبغوي (١٣/ ٢٤٢) بإسناده صحيح.

(١٧٧) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله برقم(٥٦٩٢).

ثالثاً: تفقده لأصحابه

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه كان يتفقد أحوال أصحابه، ويعمل على حل مشاكلهم ويسعى للتخفيف من آلامهم، فعن مجاهد أن أبا هريرة رضي الله كان يقول : آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه و سلم فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال:" **يا أبا هر** "، قلت لبيك يا رسول الله قال:" **الحق**"، ومضى فاتبعته فدخل فأستأذن فأذن لي فدخل فوجد لبنا في قدح فقال:" **من أين هذا اللبن**" . قالوا أهداه لك فلان أو فلانة قال:" **أبا هر**"، قلت لبيك يا رسول الله قال:" **الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي** "، قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن!، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا

فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت قال:" **يا أبا هر**"، قلت لبيك يا رسول الله قال:" **خذ فأعطهم**"، قال فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه و سلم وقد روي القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال:" **أبا هر** "، قلت: لبيك يا رسول الله قال:" **بقيت أنا وأنت**"، قلت صدقت يا رسول الله قال: **اقعد فاشرب**"، فقعدت فشربت فقال: " **اشرب**"، فشربت فما زال يقول:" **اشرب**"، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكا قال:" **فأرني** " . فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة"[١٧٨].

ومن تفقده لأصحابه سعيه لقضاء حوائج المحتاجين منهم، فعن جابر بن عبد الله– رضي الله عنهما– أنّ أباه توفّي وعليه دين فأتيت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقلت: إنّ أبي ترك عليه دينا وليس عندي إلّا ما يخرج نخله ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه فانطلق معي لكي لا يفحش عليّ الغرماء فمشى حول بيدر من بيادر التّمر[١٧٩] فدعا، ثمّ آخر، ثمّ جلس

([١٧٨]) صحيح البخاري، كتاب الرقاق ، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، برقم(٦٠٨٧).

(١٧٩)"**البَيْدَر**" هو الموضع الذي يُداسُ فيه الطَّعام بلغة الشام، النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير ١/ ١٧٦.

عليه فقال: "**انزعوه**" فأوفاهم الّذي لهم وبقي مثل ما أعطاهم)"[١٨٠]، وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتنطلق به حيث شاءت" "[١٨١] .

رابعاً: عدم مبالاته بمركبه وفراشه

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم أته كان يركب على الحمار وكان يجلس على الحصير، فعن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ركب على حمار على إكاف عليه قطيفة فدكيّة وأردف أسامة وراءه"[١٨٢] . وعن ابن عبّاس- رضي الله عنهما- قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطّاب عن آية ... الحديث وفيه: "وإنّه- أي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال:"**ما يبكيك؟**" فقلت: يا رسول الله، إنّ كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: "أما ترضى أن تكون لهم الدّنيا ولنا الآخرة" "[١٨٣] ، عن أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنّ جدّته مليكة

---

(١٨٠) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٣٨٧).

(١٨١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكبر، برقم (٥٧٢٤).

(١٨٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الردف على الحمار، برقم(٢٨٢٥).

(١٨٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطلاق، رقم (٤٦٢٩).

دعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لطعام صنعته فأكل منه ثمّ قال: "**قوموا فأصلّي لكم**" ، قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسودّ من طول ما لبس فنضحته بماء فقام عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وصففت أنا واليتيم وراءه والعجوز من ورائنا فصلّى لنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ركعتين ثمّ انصرف" "[١٨٤]عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- حدّث: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذكر له صومي، فدخل عليّ، فألقيت له وسادة من أدم، حشوها ليف، فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه، فقال: "**أما يكفيك من كلّ شهر ثلاثة أيّام؟**" قال:، قلت: يا رسول الله، قال: "**خمسا**"، قلت: يا رسول الله، قال: «سبعا» قلت: يا رسول الله ... قال: "**تسعا**"، قلت: يا رسول الله ، قال: "**إحدى عشرة**" .ثمّ قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: " **لا صوم فوق صوم داود عليه السّلام: شطر الدّهر، صم يوما وأفطر يوما**" "[١٨٥].

فالتواضع خلق أصيل من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الخلق تمثله النبي صلى الله عليه وسلم واقعاً عملياً في قوله وفعله وحاله، فحري بكل أن يتخلق بهذه الخلق؛ حتى يكون له بذلك أسورة حسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم، صاحب الخلق العظيم.

([١٨٤]) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة على الحصير برقم(٣٧٣).

([١٨٥]) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صوم داود عليه السلام ،برقم(١٨٧٩)، الحديث مختصرا.

ثالثاً: خلق الصبر

خلق الصبر من الأخلاق التي كان يتمثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم واقعاً عمليا في واقعه وحياته، وقد كان صلى الله عليه وسلم آية في الصبر، وقد تحلى النبي صلى الله عليه وسلم بكل أنواع الصبر، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أنواعا من الصبر التي تخلَّق بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهذه الأنواع سوف نتناولها في هذا المبحث على النحو الآتي:

النوع الأول: الصبر على الأذى

لما قام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله تعالى كذبه معظم أهل الشرك والكفر، ثم آذوه ومن آمن به بأنواع من الأذى والابتلاء، فأمره الله تعالى بالصبر على أذاهم، وأن لا يستجيب لا استفزازاتهم وأن يوقن بأن نصر الله له ولمن آن معه، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]، قال الشيخ الشعراوي في تفسيره لهذه الآية:" أي: فاصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك؛ لأن العاقبة في صالحك، وقد وعد الله رسله بالنصرة والغَلَبة، ووَعْد الله حق، فتأكد أن النصر آتٍ، لكن ما دام النصر آتياً، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين؟ والجواب؛ لأن الله تعالى يريد أن يُمحِّص أتباع الحق،

وأن يُدرِّبهم على مسئولية حمل أمانة الدعوة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، للكون كله، فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبات على المبدأ الذين لا تزعزعهم الشدائد والمحن، والدليل على ذلك أنهم يُؤذّوْنَ ويُضطهدون فيصبرون، وهذه أهم صفة فيمن يُعدُّ لتحمُّل أمانة الدعوة لهذا الدين"(١٨٦).

وفي آية أخرى يأمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على مشاق الدعوة إليه سبحانه وتعالى، ويبشره ربه بأن النصر قادم لا محاله، وكل ما عليه أن يلتزم بالاستغفار وأن يوظب على الصلاة بالعشي والإبكار، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" أي: " يا محمد اصبر لأمر ربك، وبلِّغ قومك ما أنزل إليك، وأيقن بحقيقة وعد الله الذي وعدك من نصرتك، ونصرة من صدّقك وآمن بك، على من كذّبك، وأنكر ما جئته به من عند ربك﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ لا خلف له وهو مُنَجز لك ولمن آمن بك، وسله غفران ذنوبك وعفوه لك وصلّ لربك شكر منك له ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ وذلك من زوال الشمس إلى الليل﴿ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ وذلك من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس"(١٨٧).

---

(١٨٦) تفسير الشعراوي صـ ٧٢٢٥، باختصار وتصرف.

(١٨٧) تفسير الطبري ٢١/ ٤٠٣، باختصار.

وفي آية أخرى يأمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذي أعدائه، ويعده بالانتقام منهم إما في الحياة الدنيا أو في الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" يأمر أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى أعدائه، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ ﴾ أي: وعده بالانتقام منهم كائن لا محالة، إما في الحياة الدنيا، أو في الآخرة، ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ من العذاب في الدنيا بالقتل، والأسر، والقهر، أو نتوفينك قبل إنزال العذاب بهم ﴿ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ يوم القيامة ، فنعذبهم"(١٨٨).

وقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم باتباع الوحي المنزل إليه من ربه والصبر على ما يلقاه في هذا الطريق، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩ ﴾ [يونس: ١٠٩]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبِعۡ ﴾ أيها الرسول ﴿ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ علمًا، وعملا وحالا ودعوة إليه، ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل، ولا تضجر،

---

(١٨٨) تفسير الشوكاني ٦/ ٣٣٨، باختصار.

بل دم على ذلك، واثبت، ﴿ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ فإن حكمه، مشتمل على العدل التام، والقسط الذي يحمد عليه"[١٨٩]، وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعد ما نصره [الله] عليهم، بالحجة والبرهان، فلله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله، وعظمته، وكماله وسعة إحسانه.

وقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي بأولي العزم من الرسل في صبرهم على الأذى في سبيل الله تعالى:﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، مثبتاً له على المضيّ لما قلَّده من عبْء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، وآمره بالائتساء بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ يا محمد على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار ﴿ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة. وقيل: إن أولي العزم منهم، كانوا الذين

([١٨٩]) تفسير السعدي صـ ٣٧٥.

امتُحِنوا في ذات الله في الدنيا بِالمحَن، فلم تزدهم المحن إلا جدّا في أمر الله، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم"[١٩٠].

وفي الوقت الذي كان الله تعالى يمكن لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أعدائه، وكان بمقدوره أن ينتقم منهم إلا أن الله تعالى أمره أن يعاقب بمثل ما عوقب به، ثم رغبه الله تعالى بما هو أفضل وهو أن يتخلق بخلق الصبر في مثل هذه المواطن، فعن أبي بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة فمثلوا بهم ،فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم، قال فلما كان يوم فتح مكة فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[النحل: ١٢٦ – ١٢٨]، فقال رجل لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا عن القوم إلا أربعة"[١٩١]. قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى مبيحا للعدل ونادبا للفضل والإحسان ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ من أساء إليكم بالقول

([١٩٠]) تفسير الطبري ٢٢/ ١٤٥.

(١٩١) صحيح وضعيف سنن الترمذي، للألباني، (٣١٢٩)، وقال عنه الألباني : حسن صحيح الإسناد، وينظر: الصحيح المسند من أسباب النزول، للوادعي، صـ ١٢٦.

والفعل ﴿ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾من غير زيادة منكم على ما أجراه معكم، ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ ﴾ عن المعاقبة وعفوتم عن جرمهم ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ من الاستيفاء وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الشورى: ٤٠]، ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس فقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك،﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئا ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾أي: شدة وحرج ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ فإن مكرهم عائد إليهم وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين، بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه"(١٩٢).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصبِّر أصحابه ويثبتهم في موطن المحن والابتلاء ويبشرهم بأن نصر الله تعالى آتٍ لا محالة، فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١٩٢) تفسير السعدي صـ : ٤٥٢.

وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال:" **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون** "(١٩٣).

فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم تخلق بخلق الصبر وهو يدعو الخلق إلى الله تعالى، وتحمل ما لقيه منهم من أذي وابتلاء وهو موقن أن نصر الله تعالى آتٍ لا محالة، هو ما كان، بشهادة الوقائع والأحداث.

النوع الثاني: الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى

أرسل الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم داعية إلى سبيل الله تعالى، وأمره أن يصبر على الأذى الذي يلقاه في هذا السبيل من قبل أعداء الدعوة والدين، فقام صلى الله عليه وسلم بواجب الدعوة خير قيام وصبر على الأذى الذى لا قاه في هذا السبيل، وقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأن يتخلق بخلق الصبر في الدعوة إليه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ ﴾

(١٩٣) صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، برقم(٦٥٤٤).

[القلم: ٤٨]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "والمراد بحكم الرب هنا أمره وهو ما حمله إياه من الإرسال والاضطلاع بأعباء الدعوة إلى الله تعالى، وهذا الحكم هو المستقرأ من آيات الأمر بالدعوة التي أولها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ ﴾ [المدثر: ١- ٧] فهذا هو الصبر المأمور به في هذه الآية أيضا، ولا جرم أن الصبر لذلك يستدعي انتظار الوعد بالنصر وعدم الضجر من تأخره إلى أمده المقدر في علم الله. وصاحب الحوت هو يونس بن مَتَّى، وقد كانت مؤاخذة يونس عليه السلام على ضجره من تكذيب قومه وهم أهل نينوى؛ فإنه ما نادى ربه إلا لإنقاذه من كربه الذي وقع فيه بسبب مغاضبته وضجره من قومه، أي لا يكن منك ما يلجئك إلى مثل ندائه"[١٩٤]

ويُضيف سيد قطب في ظلاله بعداً آخر لمعنى فبقول:" وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه صلى الله عليه وسلم إلى الصبر، الصبر على تكاليف الدعوة والرسالة، والصبر على التواءات النفوس، والصبر على الأذى والتكذيب، الصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد، ويذكر الله تعال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بتجربة دعوية لأخ له من قبل، وهي تجربة يونس عليه السلام حيث ضاق صدره بتكاليف الدعوة إلى الله

([١٩٤]) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٩/ ١٠٤)، باختصار.

تعالى، يذكر الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم بملخص تجربة يونس عليه السلام؛ لتكون له زادا ورصيدا، وهو خاتم النبيين، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الدعوة والرسالة؛ ليكون هو صاحب الحصاد الأخير للدعوة إلى الله تعالى، وصاحب الرصيد الأخير، وصاحب الزاد الأخير، يذكره ربه تبارك وتعالى بذلك؛ ليعلم أن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله، حتى يأتي موعده، في الوقت الذي يريده بحكمته.

وفي طريق الدعوة إلى الله تعالى مشقات كثيرة، مشقات التكذيب والتعذيب، ومشقات الالتواء والعناد، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون، ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق، مهما تكن مشقات الطريق فيعينه الصبر على عبئها الثقيل الكبير"[١٩٥].

ومن الآيات القرآنية التي أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يتخلق بخلق الصبر في مقام الدعوة قوله تعالى ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ ﴾ [الطور: ٤٨]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" أي: يا محمد ﴿ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ الذي حكم به

(١٩٥) في ظلال القرآن، لسيد قطب٧/ ٣٠٦، باختصار وتصرف.

عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلِّغ رسالاته ودعوته؛ فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك ودعوتك، ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين" (١٩٦).

ومن الآيات القرآنية الدالة على الصبر في مقام الدعوة إلى الله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴾[الإنسان: ٢٤]، قال الإمام الزمخشري ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح، وتأخيره نصرتك على أعدائك من أهل مكة؛ ولا تطع منهم أحداً قلة صبر منك على أذاهم وضجراً من تأخر نصرك، وكان الكفار من أهل لمكة مع إفراطهم في العداوة والإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن معه يدعونه إلى أن يرجع عن دينه، ويبذلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم إن أجابهم"(١٩٧).

ويد خل في الصبر على أمور الدعوة أن يصبر النبي صلى الله عليه وسلم، أن يصبر النبي صلى الله عليه وسلى على مجالسة الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، وأقد أم الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قائلا: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا

(١٩٦) تفسير الطبري ٢٢/ ٤٨٨)، باختصار وتصرف يسبر.

(١٩٧) تفسير الزمخشري ٧/ ٢٠٤باختصار وتصرف.

تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]، قال اشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ـ وغيره أسوته في الأوامر والنواهي ـ أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى، ثم قال له:﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك،﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال:﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره، ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي: صار تبعا لهواه، حيث ما اشتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾أي: مصالح

دينه ودنياه﴿ فُرُطًا ﴾ أي: ضائعا معطلا، فهذا قد نهى الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به؛ ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به.

والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام، ودلت الآية، على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماما، وفي الآية، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا"[١٩٨].

النوع الثالث: الصبر على العبادات والطاعات

خلق الله الخلق لعبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذه العبادة تحتاج إلى أن يداوم العبد عليها حتى يأتيه يقين الموت، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]؛ والقيام بالعبادة، على الوجه المطلوب، أمر شاق يحتاج إلى صبر ومجاهدة، لهذا أمر الله تعالى خير خلقه نبينا محمد صلى الله

([١٩٨]) تفسير السعدي، صـ ٤٧٥، باختصار وتصرف.

عليه وسلم بالاصطبار على عبادة ربه، قال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾[مريم: ٦٥]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ أي: خالقهما وخالق ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، ثم أمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعبادته والصبر عليها فقال: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ والفاء للسببية؛ لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يُتَعدّى بها؛ لتضمنه معنى الثبات ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾ الاستفهام للإنكار، والمعنى: أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون العبادة خالصة له سبحانه وتعالى، فلما انتفى المشارك استحق الله سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبنيّ على أن المراد بالسميّ: هو الشريك في المسمى وقيل: المعنى إنه لم يُسمّ شيء من الأصنام ولا غيرها باسم لله قط، وقال الزجاج : تأويله: هل تعلم له سمياً يستحق العبادة وأن يُقال له: خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون، وعلى هذا لا سَميّ لله في جميع أسمائه؛ لأن غيره وإن سُمِّيَ بشيء من أسمائه، فللّه سبحانه حقيقة ذلك

الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا: نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله"(١٩٩).

وفي موطن آخر يأمر الله تعالى نبينا محمد صلى الل عليه وسلم بالصبر على العبادات ولزوم طريق الاستقامة، ووعده بأنه سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المحسنين، قال تعالى:" ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود: ١١٣ – ١١٥]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" ومناسبة وقوع الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، أن هذه المأمورات لا تخلو عن مشقة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كل بما يناسبه، وتوجيه الخطاب إلى النبيء صلى الله عليه وسلم تنويه به، والمقصود هو وأمته بقرينة، وسمي الثواب أجرا لوقوعه جزاء على الأعمال وموعودا به فأشبه الأجر."(٢٠٠).

---

(١٩٩) فتح القدير، للشوكاني ٤/ ٤٦٨، باختصار وتصرف.

(٢٠٠) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (١٢/ ١٨٢،باختصار وتصرف.

وقد ضرب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أروع الأمثلة بالقيام بالعبادات والصبر عليها، رغم أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فعن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقال عبد الله بن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه و سلم فبكت وقالت: قام ليلة من الليالي فقال: **يا عائشة ! ذريني أتعبد لربي** قالت: قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله ! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ ! قال: **أفلا أكون عبدا شكورا ؟ لقد نزلت علي الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:** ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] "[٢٠١].

والصلاة من العبادات التي تحتاج إلى صبر للقيام بها والمحافظة عليها؛ لهذا أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بأن يأمر بها أهله وأن يصطبر عليها، قال تعالى ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه: ١٣٢]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" أي: حثَّ أهلك على الصلاة، من فرض ونفل، والأمر

([٢٠١]) السلسلة الصحيحة، للألباني، برقم (٦٨).

بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمرا بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها، ﴿ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشقة على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائما، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:﴿ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۖ ﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كانت له العاقبة الحميدة "[٢٠٢]

وقد أثني رسول الله على من أيقظ أهله لصلاة الليل، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " **رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته؛ فإن أبَتْ نضح في وجهها الماء! رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها؛ فإن أبى نضحت في وجهه**

(٢٠٢) تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) (ص: ٥١٧)

الماء "[٢٠٣]، وقد ضرب الصحابة أروع الأمثلة في أمرهم لأهليهم بالصلاة، فعن ابن عمر أن أباه عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يصلي من الليل ما شاء الله حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله للصلاة يقول لهم : الصلاة ثم يتلو هذه الآية: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢]"[٢٠٤].

فالعبادة بشكل عام تحتاج إلى صبر للمحافظة عليها، والصلاة على وجه الخصوص تحتاج إلى صبر عليها أدائها؛ لأنها إلى المداومة عليها في في كل يوم وليلة، وصدق الله القائل: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[المعارج: ٢٣].

النوع الرابع: الصبر على الدعايات المغرضة

لما بعث الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى قومه كذبه أكثر أهل مكة، ولم يكتفوا بذلك بل شنوا عليه وعلى دعوته حملةً شعواء من الدعايات المغرضة، والقصد من هذه الدعايات المغرضة صرف الناس عن الالتحاق بركاب الدعوة المباركة، وقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى

---

(٢٠٣) صحيح أبي داود ، للألباني، برقم(١١٨١).

(٢٠٤) مشكاة المصابيح، للتبريزي برقم(١٢٤٠)، واسناده صحيح.

الله عليه وسلم بالتخلق بخلق الصبر لمواجهة هذه الدعايات المغرضة، ومن الآيات القرآنية الواردة في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ ، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: اصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله، من قومك من قولهم: لك إنك ساحر، وإنك مجنون وشاعر ونحو ذلك من الأقوال، وصل بثنائك على ربك، ﴿ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ وذلك صلاة الصبح ﴿ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ﴾ وهي العصر، ويعني بقوله ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ ﴾ صلاة العشاء الآخرة، ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ : يعني صلاة الظهر والمغرب، ﴿ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ يقول: كي ترضى" (٢٠٥).

وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يدعو أهل الكفر للإيمان بالله تعالى واليوم الآخر وما فيه من بعث ونشور وحساب وعقاب، فكانوا يتلقون ذلك بالكفر والتكذيب فأمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر عليه أن يصبر على تكذيبهم له، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ

---

(٢٠٥) تفسير الطبري (جامع البيان) (١٨/ ٤٠٠)، تفسير الشوكاني (فتح القدير) (٥/ ٣٦، تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) (١٠/ ٤٨٦.

ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ق: ٣٩ – ٤٠]، قال الشيخ الزحيلي في تفسيره لهذه الآية:" أي: اصبر أيها النبي على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم بلا إعياء، قادر على بعثهم والانتقام منهم، واصبر أيضا على ما يقول اليهود وغيرهم من أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي نزهه عن العجز وعن كل نقص، مصحوبا بالحمد والشكر"(٢٠٦).

والصبر المطلوب في مواجهة الدعايات المغرضة هو الصبر الجميل، وهو الصبر الذي لا عتاب معه ولا تسخط، وهذا النوع من الصبر يحتاجه المسلم في كل محطات حياته فهو زاده وملاذه، وقد ذكر الله تعالى هذا النوع من الصبر في قوله تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٠]، قال سيد قطب في ظلاله عند هذه الآية:" الصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، ولعباده المؤمنين برسله، وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والصبر جُنَّتَه وسلاحه، والصبر ملجؤه وملاذه، فالدعوة جهاد يتاج إلى صبر جميل، جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها، وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم، ومع النفوس

---

(٢٠٦) التفسير المنير للزحيلي (٢٦/ ٣١١)، باختصار وبتصرف.

عامة، والنفس تتفلت من تكاليف الدعوة، وهي تخالفها ولا تستقيم عليها، والداعية لا زاد له أمام هذا كله إلا الصبر الجميل"[٢٠٧].

فليحرص المسلم على التخلق بخلق الصبر في كل مراحل حياته، فهو من زاد المسلم في سيره إلى الله تعالى ، في كل زمان ومكان.

(٢٠٧) تفسير سيد قطب (في ظلال القرآن) (٧/ ٣٨١، باختصار وتصرف.

رابعاً: خلق الحياء

خلق الحياء من أخلاق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي أشار الله تعالى إليه في كتابه الكريم، وقد بلغ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القمة في هذا الخلق، ومن المواقف الدالة على شدة تخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بخلق الحياء، أن بعض الصحابة رضي الله عنهم آذوه بغير قصد منهم فمنعه حياؤه صلى الله عليه وسلم أن يواجههم بهذا الأمر، وقد نزل في ذلك قرآنا يوجه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويعلمهم في كيفية التعامل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المواطن التي يستحي أن يواجههم أو يعنفهم فيها قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ٥٣ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤ ﴾[الأحزاب: ٥٣: ٥٤]، قال الشيخ السعدي في تفسيره لهذه الآية:" يأمر الله تعالى عباده المؤمنين، بالتأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، في دخول بيوته

فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها، لأجل الطعام، وأيضا لا تكونوا ﴿ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ أي: منتظرين نضجه، والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين:

الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ أي: قبل الطعام وبعده، ثم بيَّنَ حكمة النهي وفائدته فقال:﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ ﴾ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة يشق عليه حبسكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه ﴿ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ ﴾ بأن يقول لكم: اخرجوا، وقد جرت العادة، أن الناس- وخصوصا أهل الكرم منهم- يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾، أي: والله تعالى لا يستحي أن يأمركم، بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنا ما كان، فهذا أدبهم في الدخول في بيوته.

وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته، فإنه إما أن يُحتاج إلى ذلك، أو لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه، فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألن متاعا، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يُسألن ﴿ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ﴾ أي: يكون بينكم وبينهن ستر، يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهن ممنوعا بكل حال، ثم ذكر حكمة ذلك

بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾؛ لأنه أبعد عن الريبة، وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه، فلهذا من الأمور الشرعية التي بين الله كثيرا من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته، ممنوعة، وأنه مشروع، البعد عنها، بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ ﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء ﴿ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به، ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ هذا من جملة ما يؤذيه، فإنه صلى الله عليه وسلم، له مقام التعظيم، والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته من بعده مخل بهذا المقام، وأيضا، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده، لأحد من أمته ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا ﴾ أي تظهروه ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه، وكان الصحابة يدخلون بيت النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول آية الحجاب

فكان صلى الله عليه وسلم يتحرج من ذلك ويستحي أن يخبر أصحابه بذلك، حتى نزلت هذه الآية فبين لهم حكم الله في ذلك"[٢٠٨].

قد جاء في السنة النبوية بيان سبب نزول هذه الآية، فعن أنس رضي الله عنه قال: بني على النبي صلى الله عليه سلم بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعيا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوا فقلت يا نبي الله: ما أجد أحدا أدعوه قال:" **ارفعوا طعامكم**" وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة فقال:" **السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله**"، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟، فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون وكان النبي صلى الله عليه وسلم **شديد الحياء** فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدري آخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسفكة الباب[٢٠٩] داخلة وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية

---

(٢٠٨) تفسير السعدي صـ ٦٧٠، باختصار وتصرف.

(٢٠٩) " **أسفكة الباب**" أي عتبته، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ٣/ ١٧٥.

الحجاب"[٢١٠]، قال ابن حجر في تعليقه على هذه القصة:" ومحصل القصة أن الذين حضروا الوليمة جلسوا يتحدثون، **واستحيا** النبي صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالخروج فتهيأ للقيام؛ ليفطنوا لمراده فيقوموا بقيامه، فلما ألهاهم الحديث عن ذلك قام وخرج فخرجوا بخروجه، إلا الثلاثة الذين لم يفطنوا لذلك؛ لشدة شغل بالهم بما كانوا فيه من الحديث، وفي غضون ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يقوموا من غير مواجهتهم بالأمر بالخروج **لشدة حيائه** فيطيل الغيبة عنهم بالتشاغل بالسلام على نسائه، وهم في شغل بالهم، وكان أحدهم في أثناء ذلك أفاق من غفلته فخرج وبقي الاثنان، فلما طال ذلك ووصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله فرآهما فرجع فرأياه لما رجع، فحينئذ فطنا فخرجا، فدخل النبي، وأنزلت الآية ، فأرخى الستر بينه وبين أنس خادمه أيضا ولم يكن له عهد بذلك"[٢١١].

وجاء في صحيح مسلم رواية قريبة من الرواية التي وردت في صحيح البخاري وفيها بعض الايضاح لما جرى، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: " شهدت وليمة زينب فأشبع الناس خبزا ولحما، وكان يبعثني

([٢١٠]) صحيح البخاري، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة الأحزاب، برقم (٤٥١٥)، وينظر: اسباب النزول، للواحدي صـ : ٢٧١.

(٢١١) شرح صحيح البخاري لابن حجر (فتح الباري) – (١/ ٢٣٨)

فأدعو الناس، فلما فرغ قام وتبعته فتخلف رجلان استأنس بهما الحديث لم يخرجا، فجعل يمر على نسائه فيسلم على كل واحدة منهن سلام عليكم كيف أنتم يا أهل البيت؟ فيقولون: بخير يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فيقول: بخير فلما فرغ رجع ورجعت معه فلما بلغ الباب إذا هو بالرجلين قد استأنس بهما الحديث، فلما رأياه قد رجع قاما فخرجا، فوالله ما أدري أنا أخبرته أم أنزل عليه الوحي بأنهما قد خرجا، فرجع ورجعت معه فلما وضع رجله في أسكفة الباب أرخى الحجاب بيني وبينه وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾"(٢١٢).

ومن شدة حياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يواجه أحد بما يكرهه بل يتغير وجهه حياء وخجلا؛ فيعلم أصحابه رضي الله عنهم كراهيته لذلك الشيء وعدم رغبته في ذلك فيتجنبوه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال": **كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها** "(٢١٣)، قال ابن حجر في الفتح:" قوله" **أشد حياء من العذراء**" أي البكر وقوله "**في خدرها**" بكسر المعجمة أي: في سترها وهو من باب التتميم؛ لأن العذراء في الخلوة يشتد حياؤها أكثر مما تكون

---

(٢١٢) صحيح مسلم، كتاب النكاح ، باب فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها، برقم (١٤٢٨).

(٢١٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه و سلم برقم (٣٣٦٩)، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه صلى الله عليه و سلم رقم(٢٣٢٠)

خارجة عنه؛ لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها، فالظاهر أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها في خدرها لا حيث تكون منفردة فيه، ومحل وجود الحياء منه صلى الله عليه و سلم في غير حدود الله "(٢١٤).

وقد جاءت زيادة في الحديث في صحيح مسلم وهي قول أبي سيعد الخدري:" **وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه**"(٢١٥) قال الإمام النووي في تعليقه على هذه الزيادة:" " أي لا يتكلم به لحيائه، بل يتغير وجهه، فنفهم نحن كراهته، وفيه فضيلة الحياء، وهو من شعب الإيمان، وهو خير كله، ولا يأتي إلا بخير "(٢١٦).

الحياء من شعب الإيمان

ولأهمية خلق الحياء فقد عده نبينا محمد صلى الله وسلم شعبة من شعب الإيمان، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:" **الإيمان بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان**"(٢١٧) قال الإمام النووي:" وإنما جعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة؛ لأنه قد يكون تخلقا واكتسابا كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة ولكن استعماله على قانون

---

(٢١٤) شرح صحيح البخاري لابن حجر (فتح الباري) – (٦/ ٥٧٧)

(٢١٥) صحيح مسلم، ، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه صلى الله عليه و سلم برقم (٢٣٢٠)

(٢١٦) شرح صحيح مسلم للنووي – (٨/ ٢٧)

(٢١٧) صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان برقم (٣٥).

الشرع يحتاج إلى اكتساب ونية وعلم فهو من الإيمان بهذا؛ ولكونه باعثا على أفعال البر، ومانعا من المعاصي، وأما كون الحياء خيرا كله، ولا يأتي إلا بخير فقد يشكل على بعض الناس من حيث إن صاحب الحياء قد يستحيي أن يواجه بالحق من يجله، فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف في العادة، وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة منهم الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله، أن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة بل هو عجز وخور ومهانة وإنما تسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف أطلقوه مجازا لمشابهته الحياء الحقيقي وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ونحو هذا"[٢١٨].

الحياء من أخلاق الأنبياء

والحياء خلق من أخلاق الأنبياء والمرسلين، فهذا سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم كان حييا ستيرا، لا يرى من جلده شيء؛ استحياء من الله، ولشدة حيائه ظن به بنو إسرائيل ظنونا سيئة واتهموه باتهامات باطلة فقالوا عنه: إنه آدر[٢١٩] ، وقالوا عنه: إن به برص لذلك لا يكشف جلده، وما

---

(٢١٨) شرح صحيح مسلم للنووي – مفهرس ومشكول (الإسلام) (١/ ١١٢)

(٢١٩) الأدر: عظم الخصيتين ،غريب الحديث، لابن الجوزي١/ ١٥.

علموا أن سبب ذلك شدة حيائه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] [٢٢٠].

النساء وخلق الحياء

وإذا كان خلق الحياء من أخلاق مستحبا في حق الرجال فإنه يتأكد استحبابه في حق النساء، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم نموذجا لامرة حيية، وهي المرأة التي جاءت إلى سيدنا موسى عليه السلام تخبره

([٢٢٠]) صحيح البخاري برقم (٣٤٠٤).

بدعوة والدها لسيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى:﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص: ٢٥]، قال سيد قطب في ظلاله عند هذه لآية:" ﴿ تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال،﴿ عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء، جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله، يحكيه القرآن بقوله:﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾، فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح؛ لا التلجلج والتعثر والربكة، وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب، الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج؛ إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب، ولا تزيد، وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة، والاستجابة من موسى"[٢٢١] .

ولما كان خلق الحياء من الأخلاق الكريمة التي تخلق بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فحري بكل مسلم أن يتخلق بهذا الخلق؛ حتى

([٢٢١]) في ظلال القرآن، لسيد قطب٥/٤١٩.

تتحقق له الأسوة والقدوة بالنبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة وأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد أمر أمته بأن تتحلى بخلق الحياء، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **استحيوا من الله حق الحياء**" قال قلنا يا نبي الله إنا لنستحي والحمد لله، قال:" **ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى وتحفظ البطن وما حوى ولتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**"[٢٢٢]

([٢٢٢]) صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، برقم(٢٦٣٨)، وقال عنه الألباني: حسن لغيره .

فهرس الموضوعات

استهلال ٣

الإهداء..... ٤

المقمة: ٥

المبحث الأول: التعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم

أولا: اسمه ونسبه صلى الله عليه وسلم..... ٧

ثانياً: صفته صلّى الله عليه وسلم..... ٩

ثالثا: أسماؤه صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ١٠

رابعا: دلالة اسمه محمد صلى الله عليه وسلم..... ١٢

خامسا: موقف الكفار من اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم..... ١٤

سادسا: أسماءه للنبي في السنة النبوية..... ١٥

المبحث الثاني: مكانة النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

أولا: الإيمان بالله ورسوله..... ١٨

ثانيا: طاعة الله ورسوله..... ٢٢

ثالثاً : محبة الله ورسوله..... ٢٧

رابعاً- معصية الله ورسوله..... ٢٩

المبحث الثالث: صفاته صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم

الصفة الأولى: الشاهد..... ٣٧

الصفة الثانية: البشير..... ٤٣

النبي صلى الله عليه وسلم والتبشير..... ٤٨

أولا: النبي والبشارات..... ٤٨

ثانيا: جبريل والبشارات..... ٤٩

ثالثا: التبشير بالجنة..... ٥٢

رابعا: الاستبشار بمن يسلم..... ٥٥

خامسا: التبشير بالتوبة..... ٥٩

سادسا: حاجتنا للتبشير..... ٦٢

الصفة الثالثة: النذير..... ٦٤

أنواع النذر..... ٦٧

أولا: الإنذار بالقرآن الكريم..... ٦٧

ثانياً: الإنذار بعذاب الله ٧٠

ثالثاً: الإنذار بيوم القيامة..... ٧٢

الصفة الرابعة: الداعي إلى الله تعالى..... ٧٧

عناية النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله تعالى ٨٠

أولاً: ترغيبه في الدعوة إلى الله تعالى..... ٨٠

ثانيا: بيانه لقواعد الدعوة إلى الله تعالى..... ٨٢

ثالثا: استغلاله تجمعات المسلمين في الدعوة إلى الله تعالى..... ٨٥

رابعا: دعوته لكل من يسأله..... ٨٨

الصفة الخامسة: السراج المنير..... ٩١

المبحث الرابع: أخلاقه صلى الله عليه وسلم من خلال القرآن الكريم

أولاً: خلق الرحمة..... ٩٧

مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم..... ١٠١

رحمته صلى الله عليه وسلم بالأطفال ١٠١

رحمته صلى الله عيه وسلم بأعدائه..... ١٠٣

ثانيا: خلق التواضع ١٠٥

مظاهر تواضع النبي صلى الله عليه وسلم..... ١٠٨

أولا: لا يحب المدح..... ١٠٨

ثانيا: المشاركة في العمل..... ١٠٩

ثالثاً: تفقده لأصحابه..... ١١٤

رابعاً: عدم مبالاته بمركبه وفراشه..... ١١٦

ثالثاً: خلق الصبر..... ١١٩

النوع الأول: الصبر على الأذى..... ١١٩

النوع الثاني: الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى..... ١٢٥

النوع الثالث: الصبر على العبادات والطاعات ١٣٠

النوع الرابع: الصبر على الدعايات المغرضة..... ١٣٥

رابعاً: خلق الحياء..... ١٣٨

الحياء من شعب الإيمان..... ١٤٤

الحياء من أخلاق الأنبياء ١٤٥

النساء وخلق الحياء..... ١٤٦